

لهذه المحاضرة قصة ..

والقصة تبين مشهداً من مشاهد الساحة الايرانية قبل انتصار الثورة الإسلامية بكل ما كان فيها من نشاط إسلامي، ومن تحديات وعقبات.

في شهر شوال سنة 1353 هجرية شمسية (1394هـ.ق) دقّ جرس الهاتف في منزل الأستاذ المحاضر بمدينة مشهد. كان على الخط الأستاذ الشهيد الدكتور محمد مفتاح من طهران. بعد تبادل التحايا طلب الشيخ مفتاح من صاحب المحاضرة أن يقدم الى طهران في يوم 25 شوال (يوم وفاة الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)) ليلقي محاضرة عن الإمام الصادق.

كانت ظروف صاحب المحاضرة صعبة آنذاك، بسبب زحمة الأعمال والدروس وكثرة المراجعات من جميع أرجاء ايران. كان يلقي المحاضرات في مسجد (الإمام الحسن) ثم في مسجد (الكرامة) في مشهد الواقعة شرق ايران، وينتقل منها الى غرب ايران ليحاضر في همدان وكرمانشاه. وفي مشهد يدرس التفسير ونهج البلاغة والحديث.. اضافة الى دروس تخصصية في الفقه وأصول الفقه.

كل هذا كان يقوم به في ظروف ضاغطة جداً.. ظروف مالية صعبة، و ظروف سياسية قاسية.. لقد كان يعيش في فقر مدقع دون أن يعلم بذلك أحد، ودون أن يشكو لأحد. والسلطة كانت تحصي عليه أنفاسه وتتابعه وتراقبه بشدة. اغلقت (مسجد الكرامة) في هذا العام بالذات، واكتفى بمسجده الصغير (مسجد الإمام الحسن) يواصل فيه نشاطه.. ثم اعتقلته في شتاء ذلك العام. وبذلك دخل سجنه الخامس في قصة يطول ذكرها.

في مثل هذه الظروف جاء طلب الشيخ مفتاح لإلقاء محاضرة عن الإمام الصادق (عليه السلام)، في طهران بمسجد (جاويد) حيث كان الشيخ مفتاح يؤم الناس فيه.

اعتذر صاحب المحاضرة عن الحضور للأسباب المذكورة، ولعلمه بوجود أساتذة يملأون الفراغ في طهران من مثل الشيخ مفتاح نفسه، ولكن الشيخ اصّر.. وأصرّ.. وما كان من المحاضر إلا الامتثال.

بعد أيام دق جرس الهاتف ثانية، وكان الشيخ مفتاح على الخط من طهران وقال:

إن الشرطة منعت المحاضرة!

تنفس الأستاذ المحاضر الصعداء، وأحس بالراحة وحمد الله على ذلك.

ولكن الأستاذ مفتاح ما لبث أن اتصل ثالثة وقال:

لقد رُفِعَ المنع والحمد لله، ولا بد ان تحضر في الوقت المقرر. حاول السيد المحاضر أن يعتذر ولكن الشيخ قال له: لقد أعلننا نبأ المحاضرة في الجامعات. حاول المحاضر أن يتعلل بصعوبة الحصول على تذكرة الطائرة. لكن الشيخ أبدى استعداداه لتوفيرها.. لا بد من السفر إذن!

في يوم القاء المحاضرة نفسه غادر مشهد، وقبل ساعات من بدئها وصل طهران واتجه مباشرة الى المسجد.

فرح الشيخ كثيراً حينما رآه، وكان هو وما يقرب من مائتي شاب مستعدين للصلاة. وفي اثناء الصلاة التحق عدد آخر من الشباب فأصبحوا بضع مئات. وبعد دقائق تدفقت أفواج الطلبة فجأة على المسجد، بعد انتهاء الدروس في الجامعة.

غصّ المسجد وفناؤه والزقاق المجاور له بالناس.. بدأ السيد الأستاذ يلقي محاضرتة ويده أربعون ورقة كتب فيها مذكرات ترتبط بالمحاضرة. واستمر يتحدث ويتحدث والجالسون منشدون اليه، وكأن على رؤوسهم الطير. واستمرت المحاضرة 3 ساعات، وخلالها تناول بالبحث بضعاً من الورقات الأربعين التي أعدها مذكرات لمحاضرتة. واختتم المحاضرة رافعاً الأوراق الأربعين الى الحاضرين مشيراً الى انه بين قليلاً من كثير مما أعده.

ولم يمض طويلاً على هذه الحادثة اذ اعتقل الشيخ مفتاح ومنع من الصلاة في مسجد (جاويد) فانتقل بعد الافراج عنه الى الصلاة في مسجد (قبا).

وهنا لابد من التنويه الى أمر هام وهو: إن السيد الأستاذ حفظه الله ألقى هذه المحاضرة قبل عشرين عاماً، وبعدها كانت له مطالعات ودراسات واسعة في حياة أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وربما عنت له نظرات جديدة، او تغير رأيه في مسألة معينة من المسائل المطروحة في المحاضرة. وكم كنا نوّد ان نرى رأيه فيها لنحصل على آخر نظراته قبل أن نقدم على نقلها الى اللغة العربية. ولكن عظم المسؤوليات وزحمة الأعمال وتراكمها حال دون ذلك، لذلك نقدمها الى القارئ الكريم كما هي، ففيها من الجديد الشيء الكثير، وفيها من تراثيات الفكر الإسلامي المطروح في ايران قبل انتصار الإسلام ما يهم كل متتبع.

ويلاحظ في المحاضرة أن السيد الأستاذ يواجه تيارين طالما واجههما في محاضراته ودروسه وهما: التيار اليساري المتحامل على الإسلام وعلى رموز الإسلام، والذي يصف رجال الإسلام بأنهم لم يتصدوا للدفاع عن المحرومين والمظلّمين بل كانوا سندا للظالمين والمترفين، والتيار المهزوم المتقاعد الذي يحاول أن يجد في حياة أئمة الإسلام ما يبرر قعوده وسكونه. وهذان التياران كان لهما ثقلهما في الساحة الايرانية قبل تنامي الثورة الإسلامية، وكانا يشكّلان عقبة أمام العاملين نحو دفع المجتمع على المسيرة الإسلامية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا
تبديلاً}

{وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين}

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن اهتدى بهداه.

ثمة نظرتان خاطئتان بشأن الإمام الصادق (عليه السلام)، ناشئتان عن لونيْن من التفكير؛ ومن الغريب أنهما على اختلافهما تتقاربان في الشكل والمحتوى والمنشأ، بل يمكن القول إن النظرتين تشتركان في بعض المحاور اشتراكاً تاماً:

النظرة الأولى:

نظرة مدافعة يبيدها أولئك الذين يخالون أنهم من أتباع الإمام ومواليه.. إنها نظرة شيعة الإمام الصادق (عليه السلام) بالقول، لا بالعمل، وتتلخص بما يلي:

إن الإمام الصادق (عليه السلام) توفرت له ظروف لم تتوفر لإمام من قبله ولا من بعده، استطاع أن يستغلها لنشر أحكام الدين، وأن يفتح أبواب مجلسه لطلاب العلم. جلس في بيته، وفتح صدره للمراجعين، وتصدى للتدريس ونشر المعارف، وارتوى كل من قصده من طلاب العلم وناشدي الحقيقة. اشترك في مجلس درسه أربعة آلاف تلميذ، وعن طريق هؤلاء التلاميذ انتشرت علوم الإمام الصادق، منها العلوم الدينية: كالفقه والحديث والتفسير، ومنها العلوم الانسانية: كالتاريخ والأخلاق وعلم الاجتماع.

وتصدى الإمام لمناقشة المنتمين الى الأفكار الدخيلة، والردّ على الزنادقة والماديين والملحدّين، مباشرة او عن طريق تلاميذه، وقارع أصحاب النحل المنحرفة بقوة. ولكل مجال من مجالات الدين، ربّى كوكبة من الطلبة والمتخصصين.

ويقول أصحاب هذه النظرة أيضاً: إن الإمام - وحرصاً على استمرار هذا المشروع العلمي - اضطر الى عدم التدخل في السياسة، فلم يقدم على أي عمل سياسي، بل وأكثر من ذلك فإنه سلك طريقاً يتماشى مع سياسة خلفاء زمانه لاسترضائهم، ولاستبعاد أية شبهة يمكن أن تحوم حول نشاطه. لذلك لم يجابهم، ومنع ايضاً أن يجابهم أحد. وقد تستلزم الظروف أن يذهب اليهم وينال جائزتهم وحظوتهم، وإن حدث أن أساء الحاكم به الظن - نتيجة حدوث حركة ثورية أو تهمة لفقها نمام - يتجه الإمام (عليه السلام) الى استمالة الحاكم ومجاملته.

ويورد أصحاب هذه النظرة شواهد تاريخية، من ذلك رواية ربيع الحاجب وأمثالها، التي تصور الإمام في مجلس المنصور وهو يبدي الاعتراف بالتقصير وعلان الندم، وتنقل عن الإمام عبارات مدح وثناء يبديها تجاه الخليفة المنصور، مما لا يشك الانسان في كذب صدورها عن الإمام الصادق (عليه السلام) تجاه طاغية كالمَنصور. هذه العبارات تصور المنصور بأنه كيوسف وسليمان وأيوب، وتطلب منه أن يصبر على ما يرى من إساءات الإمام او إساءات بني الحسن: (إن سليمان أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت من ذلك السنخ..).

هذه نظرة تصور الإمام عالماً، باحثاً، وأستاذاً كبيراً انتهل من بحر علمه أبو حنيفة ومالك و... لكنه كان بعيداً كل البعد عن كل مقاومة لعدوان السلطة على الدين، وعن كل ما تتطلبه مهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام السلطان الجائر.. كان بعيداً كل البعد عن الثوار من أمثال: زيد بن علي ومحمد بن عبد الله والحسين بن علي شهيد الفخ، بل عن الجنود المقاتلين من هؤلاء الثوار، ولم يكن يبدي أي رد فعل تجاه ما يحل بالمجتمع الإسلامي، ولا يكثرث بما كان يكتنزه المنصور من أموال طائلة، ولا بما كان يعاني منه أبناء رسول الله في جبال طبرستان ومازندران وفي رساتيق العراق وايران من جوع، بحيث لا يجدون ما يسد رمقهم، ولا ما يستريحهم اذا أرادوا الصلاة جماعة. ولا يهتم بما كان يتعارض له أتباعه من قتل وتعذيب وتشريد وهم صفر اليدين من كل متاع يتنعم به الأفراد العاديون من أبناء المجتمع آنذاك!!

في ظن أصحاب هذه النظرة أن الإمام الصادق لم يبدِ أية حساسية تجاه هذا الوضع، بل كان قانعاً بأن يأتيه من مثل ابن أبي العوجاء، فيقارعه بالحجج والبراهين ويغلبه، ويخرج من بيته مهزوماً.. دون أن يؤمن طبعاً.

هذه هي صورة الإمام الصادق كما يرسمها أصحاب النظرة الأولى.

النظرة الثانية:

يحملها أولئك الذين لا يعترفون بإمامة الصادق، وهي نظرة متحاملة على الإمام ترى أنه (عليه السلام) وقف تجاه ما كان يحيق بالمجتمع من ظلم موقف عدم الاكتراث. فالمجتمع في زمانه كان يضح بالمظالم الطبقية والطغيان السياسي والسيطرة المقيتة على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم، وأكثر من ذلك على عقولهم ونفوسهم وتفكيرهم ومشاعرهم. حتى لم تعد الأمة تتمتع بأبسط الحقوق الانسانية، بما في ذلك القدرة على الانتخاب. مقابل هذا كان الطواغيت يتلاعبون بمقدرات الناس كيف ما شاءوا، وبينون القصور الفارهة، مثل قصر الحمراء جوار آلاف الخرائب التي تعيش فيها البؤساء من عامة الشعب.. في مثل هذا المجتمع المليء بألوان التعسف والاضطهاد يتجه الصادق الى البحث والدراسة وتربية الطلبة، ويصبّ اهتمامه على تخريج الفقهاء والمتكلمين...!!.

إن كلا النظرتين مجحفتان، لا تقومان على أساس ولا تستندان الى دليل واقعي. غير أن النظرة الأولى أشد اجحافاً وأكثر ظلماً للإمام الصادق (عليه السلام) لأنها صادرة عن لسان من يدعي أنه من شيعته وأتباعه.

لا أريد أن أنهج هنا اسلوب البحث العلمي المتداول في الدراسات بعرض جميع النصوص الواردة عن حياة الإمام الصادق (عليه السلام) وأقارن بينها من حيث المتن والسند لأخرج بنتيجة، فذلك له مجاله في مجالس البحث العلمي.

أريد أن أطرح هنا نظرة ثالثة مقابل تينك النظرتين.. وأقرن هذه النظرة بأدلة مستقاة من مصادر موجودة بين أيديكم، لكي تستطيعوا - مثل حَكَم محايد - أن تتطلعوا من خلالها الى الوجه الحقيقي للإمام (عليه السلام).

وقبل أن أدخل في صميم البحث يلزمني أن أشير الى أن كلا النظرتين لا يقومان على أساس صحيح موثوق به.

فكما ذكرت أن النظرة الأولى تستند الى عدد من الروايات (أوضحت وضع اسنادها في الهامش). وهذه الروايات تنسجم طبعاً مع طالبي الراحة ومحبي العافية، فيتذرعون بها باعتبارها حجة قاطعة. إنها كافية لأن تكون مبرراً للانتهازين من ذوي النفوس الضعيفة المهزوزة.

فهذه الروايات تصور الإمام بأنه راح يتملق للمنصور لحفظ حياته، مع أنه كان قادراً أن يحتوي الموقف بأسلوب حكيم. واذا كان ذلك شأن القدوة فما بالك بالمقتدي؟

نعتقد أن نص هذه الروايات كافٍ لإثبات زيفها. فالإمام كان قادراً على دفع شر المنصور عنه بطرق أخرى كما حدث في مواقف عديدة تنقلها روايات موثوقة، فلا دليل إذن على أن يعمد الإمام الى هذا الملق الزائف والثناء الكاذب ليضفي على المنصور خصلاً ليست فيه ومكانة لا يستحقها. فمكانة الإمامة أرفع من ذلك بكثير دون شك، وأسمى من أن تتلوث بمثل هذه المواقف المنحطة.

ومن حيث السند، فإن تحري الدقة في الرواة يكشف لنا عن أشياء كثيرة. ففي عدد من هذه الروايات نرى الاسناد ينتهي بالربيع الحاجب. الربيع حاجب المنصور! وما أعدله من راو؟! ويظهر من المصادر أن الربيع كان أقرب الناس الى المنصور، وأكثرهم زلفاً لديه. استوزره المنصور سنة 153هـ (5 سنوات بعد وفاة الإمام الصادق)، أي نال رفعة في المقام.. (ولعله نال هذا الترفيع ثمناً لما نسبه للصادق (عليه السلام) من أكاذيب).

مثل هذا الشخص الذي ثبت إخلاصه ووفائه لجهاز الخلافة لا يستبعد منه أن يختلق الأكاذيب، فينسب كلام الملق الى الإمام الصادق او يغيّر كلاماً حاداً قاله الإمام الى كلام تضرع والتماس. هذا ليس بغريب على هذا الحاجب، لكن الغريب أن يصدق عاقل قول أحد بطانة الخليفة بشأن عدو الخليفة، ومقولة تشيع هذا المفترى، وهي مقولة تشكل جزءاً من المؤامرة الخبيثة.

والنظرة الثانية ايضاً واهية بالدرجة نفسها وغير علمية. إنها تشبه أحكام المستشرقين المنطلقة عن غرض او جهل، ومن روح مادية محضه لا تنسجم اطلاقاً مع طبيعة الأحداث الإسلامية. ولقد شاهدنا تلك الأحكام الفجة التافهة التي تصدر عن بعض المستشرقين تجاه الإسلام وأئمة أهل البيت (عليهم

السلام). كقول أحدهم عن الإمام الحسن المجتبي أنه باع الخلافة بالمال! وقضى عمره بين العطر والمرأة والترف! وقول مستشرق آخر: إن الإسلام نقل الإسلام من مرحلة الرقبة الى مرحلة الاقطاع!!

والنظرة الثانية التي نتحدث عنها تشترك مع أقوال هؤلاء المستشرقين في السطحية والتسرع والمنطلق المادي.

والطريف أن الوثائق التي يعتمد عليها أصحاب النظرة الثانية ليست سوى ما يلقفه أصحاب النظرة الأولى من أحكام!!

النظرة الصحيحة

النظرة الثالثة: والآآن نبدأ بالنظرة الثالثة بشأن الإمام الصادق، وهي نظرة يمكن ان يستنبطها كل ثاقب نظر بالرجوع الى المصادر والمراجع. وهذا الاستنباط لا يختص بزمان الإمام الصادق وحده، بل يشمل كل أئمة أهل البيت، مع الفارق في خصائص عمل كل منهم حسب ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان، وهذا الاختلاف في الخصائص لا يتنافى مع وحدة روح العمل المشترك وحقيقته ومع وحدة الهدف والمسير.

من أجل أن نفهم طبيعة المسيرة العامة لحياة الأئمة، علينا أولاً أن نتبين فلسفة الإمامة. التيار الذي عرف في مدرسة أهل البيت باسم الإمامة، والذي تتكون عناصره الأصلية من أحد عشر شخصاً توالوا قرنين ونصف القرن تقريباً، إنما هو في الواقع امتداد للنبوة.

فالنبي يبعثه الله سبحانه بمنهج جديد للحياة، وبعقيدة جديدة، وبمشروع جديد للعلاقات البشرية، وبرسالة الى الانسانية، ويطوي حياته في جهاد مستمر، وجهد متواصل، ليؤدي مهمة الرسالة الملقاة على عاتقه قدر ما يسمح له عمره المحدود.

وعملية الدعوة يجب أن تستمر بعده؛ كي تبلغ الرسالة أعلى الدرجات المتوخاة في تحقيق الأهداف. ويجب أن يحمل أعباء المواصلة من هو أقرب الناس إلى صاحب الرسالة في جميع الأبعاد؛ كي يبلغ بالأمانة إلى محطة آمنة وقاعدة رصينة ثابتة مستمرة.

هؤلاء هم الأئمة وأوصياء النبي. وكل الأئمة العظام وأصحاب الرسالات كان لهم أوصياء وخلفاء. ومن أجل أن نعرف مهمة الإمام، لا بد أن نعرف مهمة النبي. والمهمة يبينها القرآن الكريم إذ يقول: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط}.

هذه إحدى الآيات التي تبين علّة النبوة، وتبين من جهة أخرى مهمة الأنبياء. فالأنبياء ابتعثوا لبناء مجتمع جديد، ولاقتلاع جذور الفساد، وإعلان ثورة على جاهلية زمانهم، وقلب مجتمعاتهم. وعملية التغيير هذه يعبر عنها الإمام علي (عليه السلام) في مطلع استلام مهام حكومته بقوله: ((..حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم..)).

إنها عملية صناعة مجتمع على أساس التوحيد والعدل الاجتماعي وتكريم الإنسان، وتحريره، وتحقيق المساواة الحقوقية والقانونية بين المجموعات والأفراد، ورفض الاستغلال والاستبداد والاحتكار، وإفساح المجال للطاقت والكفاءات الإنسانية، وتشجيع التعلّم والتعليم والفكر والتفكير.. إنها عملية إقامة مجتمع تنمو فيه كل عوامل سموّ الإنسان في جميع الأبعاد الأساسية، ويندفع الكائن البشري فيه باتجاه مسيرته التكاملية على ساحة التاريخ.

هذه هي المهمة التي بعث الله الأنبياء من أجلها، ونستنتج من ذلك أن الإمامة، باعتبارها امتداد لمهام النبوة، تتحمل نفس هذه الأبعاد. لو أن رسوله الله (صلّى الله عليه وآله) عاش 250 عاماً، فماذا كان يفعل يا ترى، وكيف كان يتحرك على طريق الدعوة؟ نفس هذه العملية نهض بها الأئمة. هدف الإمامة هو نفس هدف النبوة، والطريق هو الطريق، أي إيجاد مجتمع إسلامي عادل، والسعي لصيانة مسيرته الصحيحة.

مقتضيات الزمان مختلفة طبعاً، وبنفس النسبة يختلف التكتيك والاسلوب. النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه كان يعمل في بداية الدعوة بالاسلوب يختلف عن اسلوبه حين قطع شوطاً من الطريق نحو تحقيق هدفه المنشود.

حين كانت الدعوة في بداية الطريق، وكانت محفوفة بألوان التهديدات والتحديات تطلب الأمر تدبيراً خاصاً لمواصلة حمل الرسالة، وحين ترسخت قواعد النظام الإسلامي، وضرب الإسلام بجرانه في الجزيرة العربية اختلف التدبير والاسلوب.. والثابت والباقي هو الهدف الأسمى الذي أنزلت الرسالة من اجله.. وهو السعي لإيجاد مجتمع يستطيع الإنسان فيه أن يطوي مسيرته التكاملية في جميع الأبعاد، وأن تنفجر فيه الطاقات الخيرة والقوى الكامنة الإنسانية، ومن ثم صيانة هذا المجتمع ونظامه الإسلامي.

كان أئمة الشيعة يتجهون - كالنبي - نحو هذا الهدف نفسه، نحو إقامة نظام عادل إسلامي بنفس الخصائص وعلى نفس المسير. وفي حالة قيام هذا النظام تتجه الجهود نحو صيانة مسيرته واستمرارها.

ما الذي تتطلبه إقامة نظام اجتماعي أو مواصلة مسيرة هذا النظام؟ تتطلب أولاً ايدولوجية موجهة وهادية ينبثق عنها ذلك النظام وتصوغه بصياغتها. ثم تحتاج ثانياً إلى قوة تنفيذية تستطيع أن تشق الطريق وسط الصعاب والمشاكل والعقبات نحو تحقيق الهدف. نعرف أن ايدولوجية الأئمة هي الإسلام. والإسلام رسالة البشرية الخالدة.. رسالة تحمل في مضمونها عناصر بقائها وخلودها.

وبملاحظة هذه الأمور، نستطيع بسهولة أن نفهم المنهج العام لأئمة أهل البيت وأوصياء النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله).

هذا المنهج ذو جانبين متلازمين: الأول يرتبط بالعميقة، والثاني بتوفير القدرة التنفيذية والاجتماعية. ففي الجانب الأول تتجه جهودهم وهمهم إلى نشر مفاهيم الرسالة وبلورتها وترسيخها، والكشف عن الانحرافات التي تصدر عن المغرضين والمنحرفين، وبيان الأطروحة الإسلامية لما يستجد من أمور، وإحياء ما اندثر من معالم الرسالة بسبب اصطدامها مع مصالح ذوي القدرة والنفوذ، وتوضيح ما خفي

على الأذهان العادية من كتاب الله عزير وسنة نبيه.. فمهمة الجانب الأول تتلخص إذن بصيانة الرسالة الإسلامية حيّة بناءة متحركة على مرّ الأجيال.

وفي الجانب الثاني، كانوا يسعون، وفقاً لما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية والعالمية في المجتمع الإسلامي، الى إعداد المقدمات اللازمة لاستلام زمام قيادة الحكم في المجتمع بأنفسهم بشكل عاجل، او التمهيد لكي يستلمها على المدى البعيد من يواصل مسيرتهم في المستقبل.

هذا موجز هدف حياة الأئمة الأطهار، وهذه هي الخطوط العامة لأهدافهم. من أجلها عاشوا، ومن أجلها استشهدوا.

وإذا كان ما وصلنا من تاريخ حياة الأئمة لا يثبت ما ذهبنا اليه، فإن عقيدتنا في الأئمة كافية لأن تصور حياتهم بهذا المنظار لا غير، فما بالك اذا كان التاريخ يشهد بما يقنع كل باحث أن حياة أئمة آل البيت كانت في هذا الاتجاه!

استمرت مسيرة الإمامة منذ رحلة الرسول (صلى الله عليه وآله) في شهر صفر سنة 11 هجرية، حتى وفاة الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) في ربيع الأول سنة 260 هـ. وخلال هذه السنين طوت المسيرة أربع مراحل كان للأئمة في كل منها موقف متميز تجاه حكام المجتمع الإسلامي:

المرحلة الأولى:

مرحلة السكوت، أو مرحلة التعاون مع الحاكم.

تميزت هذه المرحلة بأن المجتمع الإسلامي الوليد كان محفوفاً بأخطار الأعداء الذين تربصوا بالإسلام من الخارج بعد أن أحسوا بخطر الرسالة عليهم، وكان هناك أعداد غفيرة من جماعات حديثة العهد بالإسلام لا تطيق أن ترى تشتتاً في المجتمع الإسلامي، وكل ثغرة في جسد الأمة تشكل تهديداً لأساس المجتمع الإسلامي ووجوده.

ومن جانب آخر لم يكن منحني الانحراف قد ارتفع بحيث لم يعد قابلاً للتحمّل بالنسبة لشخص مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي هو أحرص الناس على سلامة الرسالة وسلامة المجتمع الإسلامي. ولعل هذه الحالة التي حدثت في المجتمع الإسلامي هي التي أشار إليها رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين أوصى تلميذه الفذّ بالصبر عند وقوعها.

لقد استوعبت هذه المرحلة حياة الإمام علي (عليه السلام) منذ وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى توليته الخلافة. وقد شرح الإمام موقفه في هذه المرحلة خلال الكتاب الذي وجهه إلى أهالي مصر مع مالك الاشر لما ولّاه إمارتها إذ جاء فيه:

((فأمسكت يدي، حين رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (صلى الله عليه وآله) فخشيت إن لم انصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم.. فنهضت في تلك الأحداث..)).

حين عزفت عنه الولاية سكت في سبيل الإسلام، وحين واجه المجتمع أخطار جسيمة، قام ينافع عن الإسلام والمجتمع الإسلامي هادياً وموجهاً وعاملاً في المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية. وفي نهج البلاغة وسيرة علي (عليه السلام) ما يدل بيقين على طبيعة تحرك الإمام خلال هذه الفترة.

المرحلة الثانية:

مرحلة استلام الحكم. وهذه استغرقت أربعة أعوام وتسعة أشهر من خلافة أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وبعضة أشهر من خلافة ولده الحسن (عليه السلام). ومع كل ما اكتنف هذه المرحلة من آلام وهموم ومشاكل ومصاعب تكتنف عادة كل حكومة تائرة، فأنها سجلت أنصع الصفحات وأروعها في تاريخ الحكومة الإسلامية، بما قدمته من طريقة إنسانية في التعامل، ومن عدل والتزام دقيق بأحكام الإسلام بأبعاده المختلفة في إدارة المجتمع الإسلامي، هذا إلى جانب الحزم والصرامة والجرأة في التطبيق واتخاذ المواقف.

هذه المرحلة من تاريخ الإمامة كانت النموذج الذي دعا أئمة أهل البيت (عليه السلام) خلال القرنين التاليين إلى تطبيقه في الحياة السياسية والاجتماعية. وأتباع مدرسة أهل البيت منشدون باستمرار إلى تلك الفترة التاريخية، ينشدون استعادتها في حياتهم، ويتخذونها أساساً في تقويم أنظمة زمانهم.

وبهذا المعيار يدينون الأنظمة المنحرفة عن النهج الإسلامي، كما كانت هذه الفترة تجربة ودرساً لحكومة إسلامية ثورية تماماً في مجتمع عصفت به الأهواء والانحرافات. وكانت حالة المجتمع هذه قد ألفت عبئاً ثقيلاً ومسؤولية كبيرة على الأئمة التاليين.

المرحلة الثالثة:

هي التي استوعبت السنوات العشرين بين صلح الإمام الحسن (عليه السلام) سنة 41 هـ، وشهادة الإمام الحسين (عليه السلام) سنة 61 هـ.

بعد صلح الحسن (عليه السلام) بدأ نوع من العمل شبه سرّي، هدفه إعادة القيادة الإسلاميّة إلى أصحابها الحقيقيين، إذ كان الأمر يتطلب التريث ريثما تنتهي مدة حكم معاوية، وخلال هذه المدة القصيرة توجهت الجهود البناءة للتمهيد إلى المرحلة التالية.

المرحلة الرابعة:

هي التي نحتاج إلى أن نقف عندها ولو قليلاً، لأنها هي التي تعيننا في دراسة الإمام الصادق (عليه السلام). في هذه المرحلة التي استمرت قرابة قرنين، تواصلت مسيرة الإمامة ضمن خطة بعيدة المدى لتغيير المجتمع وفق نظرة الإسلام في جميع المجالات، بما في ذلك القيادة السياسية. كانت مفعمة بالانتصارات والانتكاسات، ومقرونة بنجاح باهر في مجال العمل الفكري والعقائدي، وممتزجة بألوان الأساليب الرائعة في العمل التكتيكي المناسب، ومزدانة بأسمى وأروع مظاهر الإخلاص والتضحية والتفاني والعظمة الإنسانية على الطراز الإسلامي.

هذه المرحلة بدأت من محرم سنة 61 هجرية، بعد استشهاد الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) وبدء إمامة علي بن الحسين (عليه السلام). وفي هذه المرحلة نشط الأئمة - كما ذكرنا - في الحقل الابدولوجي ومكافحة الانحرافات والتحريفات التي خلّفتها مراكز القدرة والأذهان الجاهلية، إلى جانب العمل على المدى البعيد لإقامة حكم إسلامي ينتهج القرآن وسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويتمثل نموذج حكومة علي (عليه السلام).

واضح أن تنفيذ منهج ثوري أصيل عميق في مجتمع مرّت عليه سنون من الانحراف الفكري والعملي يستدعي تكتيكاً دقيقاً وتخطيطاً أساسياً. فالمجتمع الإسلامي آنئذ قد مرّت عليه فترة حكومة معاوية بكل ما فيها من تخدير وتحريف وتزييف وابتعاد عن الروح الرسالية وحرمان من القيادة المبدئية، مما أدى إلى تفاقم خطر الانحراف، حتى إنّ الأمر آل إلى مقتل ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في كربلاء على مسمع ومرأى من هذا المجتمع المرعوب المشلول المهزوم أمام الارهاب الأموي.

لابدّ إذن من عمل كبير يعيد إلى هذا المجتمع معنوياته المفقودة وشخصية المسحوقة، انها لعملية تغيير كبرى يحتاجها هذا المجتمع كي يعود مرّة أخرى مؤهلاً لحمل الرسالة والنهوض بأعباء المسؤولية الثقيلة. لابد من ثورة كالتّي أعلنها رسول الله في المجتمع الجاهلي، ثم تولّى قيادة هذا المجتمع انطلاقاً من هذه الثورة.

أن إعادة الحياة الثورية وتجديدها عملية لا تتّقلّ صعوبة وأهمية عن خلق الثورة وإيجادها. عملية التجديد الثوري بحاجة إلى إيمان عميق، وعزم راسخ، وعقل مدبر، وفكر يقظ وواع وفعال. فمن الذي يحمل عبء هذه المسؤولية؟!

تلك الفئة التي ما استطاعت أن تسيّر وراء الإمام الحسن (عليه السلام) وما ارتفعت إلى مستوى مناصرة الإمام الحسين (عليه السلام) غير قادرة دون شك على عملية الإحياء هذه. والاعتماد على هذه الفئة ليس وراءه إلا الفشل والخسران.

إن تجربة ((التوابين)) ثم قيام المختار وإبراهيم بن مالك خير دليل على ما ذهبنا إليه.

والإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) يقف الآن بعد حادثة عاشوراء على مفترق طريقين:

إما أن يعمد إلى دفع أصحابه نحو حركة عاطفية هائجة، ويدخلهم في مغامرة، لا تلبث شعلتها - بسبب عدم وجود المقومات اللازمة فيهم - أن تخمد وجذوتها أن تنطفئ، وتبقى الساحة بعد ذلك خالية لبني أمية، يتحكّمون في مقدّرات الأمة فكرياً وسياسياً.. أو أن يسيطر على العواطف السطحية والمشاعر الفائرة، ويعدّ المقدمات للعملية الكبرى، المقدمات المتمثلة في الفكر الرائد والطلّيع الواعية الصالحة لإعادة الحياة الإسلامية إلى المجتمع، وأن يصون حياته وحياة المجموعة الصالحة لتكون النواة الثورية للتغيير المستقبلي، ويتعد عن أعين بني أمية، ويواصل نشاطه الدائب على جبهة بناء الفكر وبناء الأفراد.

وبذلك يقطع شوطاً على طريق الهدف المنشود، ويكون الإمام الذي يليه أقرب إلى هذا الهدف.

فأي الطريقين يختار؟

لا شك أن الطريق الأول هو طريق التضحية والفداء، لكن القائد الذي يخطط لحركة التاريخ، ولمدى أبعد بكثير من حياته، لا يكفي أن يكون مضحياً فقط، بل لابد أيضاً أن يكون عميقاً في فكره، واسعاً في صدره، بعيداً في نظره، مدبراً وحكيماً في أموره.. وهذه الشروط تفرض على الإمام انتخاب الطريق الثاني.

والإمام علي بن الحسين (عليه السلام) اختار الطريق الثاني مع كل ما يتطلبه من صبر ومعاناة وتحمل ومشاق، وقدّم حياته على هذا الطريق (سنة 95 هجرية).

وقد صوّر الإمام الصادق (عليه السلام) وضع الإمام الرابع ودوره الرائد بقوله:

((ارتدّ الناس بعد الحسين (عليه السلام) إلا ثلاثة: أبو خالد الكابلي، ويحيى بن أم الطويل، وجبير بن مطعم، ثم أن الناس لحقوا وكثروا، وكان يحيى بن أم الطويل يدخل مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويقول: {كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء})).

هذه الرواية تصوّر حالة المجتمع الإسلامي بعد مقتل الحسين (عليه السلام).

إنها حالة الهزيمة النفسية الرهيبة التي عمّت المجتمع الإسلامي ابان وقوع هذه الحادثة. فمأساة كربلاء كانت مؤشراً على هبوط معنويات هذا المجتمع عامة، حتى شيعة أهل البيت. هؤلاء الشيعة الذين اكتفوا بارتباطهم العاطفي بالأئمة، بينما ركنوا عملياً إلى الدنيا ومتاعها وبريقها.. ومثل هؤلاء كانوا موجودين على مرّ التاريخ، وليسوا قليلين حتى يومنا هذا.

فمن بين الآلاف من مدّعي التشيّع في زمن الإمام السجاد (عليه السلام) بقي ثلاثة فقط على الطريق.. ثلاثة فقط لم يربعهم الارهاب الأموي ولا بطش النظام الحاكم، ولم يشنّ عزمهم حبّ السلامة وطلب العافية، بل ظلّوا ملبّين مقاومين يواصلون طريقهم بعزم وثبات.

هؤلاء لم ينحرفوا مع تيار المجتمع المنجرّ كالرعاع وراء إرادة الحاكم الظالم، بل كان يقف الواحد منهم وهو يحيى بن أم الطويل في مسجد المدينة ويخاطب مدّعي الولاء لأهل البيت، معلناً براءته منهم - كما مرّ - ويستشهد بما قاله إبراهيم (عليه السلام) واتباعه لمعارضيه زمانه: {كفرنا بكم وبدنا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء}.

أراد ابن أم الطويل بتلاوته هذه الآية المباركة أمام مدّعي الولاء لأهل البيت (عليهم السلام) أن يعلن الانفصال التام بين الجبهتين: جبهة الرساليين الملتزمين، وجبهة الخلود الى الأرض والانحطاط الى الأماني الرخيصة والانشدادات المادية التافهة. وهو انفصال يرافق كل الدعوات الإلهي. والإمام الصادق (عليه السلام) عبّر عن هذه الانفصال بين الجبهتين بقوله: ((من لم يكن معنا كان علينا)) أي من لم يكن في جبهة التوحيد كان في جبهة الطاغوت، وليس ثمة منطقة وسط بين الاثنين، ولا معنى للحياة في هذا الانتماء.

إن يحيى ابن أم الطويل هذا المسلم والموالي الحقيقي لأهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) بصرخته هذه يعلن الانفصال بين الذين يُرضون أنفسهم بالولاء العاطفي بينما هم قابعون في قوقعة مصالحتهم الشخصية وغارقون في مستنقع ذاتياتهم الضيقة، وبين أولئك الملتزمين فكراً وعملاً بالإمام.

هذا الانفصال يعني - طبعاً - الترفع عن الانجرار وراء الاكثرية الضالة، ولا يعني اهمال هؤلاء الضالين. من هنا اتجهت هذه المجموعة الصالحة الى انتشار من له قابلية التحرر من الإصر والأغلال، وكثرت بالتدريج هذه الفئة المجاهدة الصابرة، والى هذا يشير الإمام الصادق (عليه السلام) في قوله المذكور آنفاً: ((ثم إن الناس لحقوا وكثروا)). وبذلك واصل الإمام السجاد (عليه السلام) نشاطه. وكان هذا النشاط وبعض المواقف الأخرى التي سنذكرها مما أدى الى استشهاده، واستشهاد بعض المقربين من أصحابه.

لم أر في حياة الإمام السجاد (عليه السلام) ما يدل على مواجهة صريحة مع الجهاز الحاكم، والحكمة كانت تقتضي ذلك - كما ذكرنا - لأنه لو اتخذ مثل تلك المواقف التي نشاهدها في حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) وبعده من الأئمة تجاه حكام عصره لما استطاع أن يحقق ما حققه من دفع عملية التغيير دفعة استطاعت أن توفر للإمام الباقر (عليه السلام) فرصة نشاط واسع، بل لصُفي هو والمجموعة الصالحة الملتفة حوله.

في مواقف نادرة نلمس من الإمام (عليه السلام) رأيه الحقيقي من السلطة الحاكمة، ولكن ليس على مستوى المواجهة، بل على مستوى تسجيل موقف للتاريخ وليجعل المحيط القريب منه على قدر من العلم بعمله وحركته.

من تلك المواقف، رسالة تقريع واسعة وجهها الإمام (عليه السلام) الى رجل دين مرتبط بجهاز بني أمية هو (محمد بن شهاب الزهري). ونستطيع أن نفهم من الرسالة أن الإمام يخاطب بها الاجيال على مر العصور، لا الزهري. لأن الزهري لم يكن بالشخص الذي يستطيع أن يتحرر من الأغلال التي تشده الى موائد بني أمية وقصاعهم ولهوهم ومناصبهم وجاههم. ولم يستطع بالفعل. لقد قضى عمره في خدمتهم، ودوّن كتاباً ووضع حديثاً ليتزلف اليهم.

هذه الرسالة اذن وثيقة توضح موقف الإمام من أوضاع زمانه. ونصها موجود في كتاب (تحف العقول).

وثمة وثيقة أخرى هي عبارة عن رسالة جوابية وجهها الإمام (عليه السلام) الى عبد الملك بن مروان بعد أن أرسل الثاني رسالة يعيّر فيها الإمام بزواجه من أمته المحررة، وقصد ابن مروان بذلك أن يبين للإمام (عليه السلام) أنه محيط بكل ما يفعله حتى في أموره الشخصية، كما أراد أيضاً أن يذكر الإمام بقرابته منه طمعاً منه في استمالاته.

والإمام (عليه السلام) في رسالته الجوابية يوضح رأي الإسلام في هذه المسألة، ويؤكد أن امتياز الايمان والإسلام يلغي كل امتياز آخر. ثم بأسلوب كناية في غاية الروعة يشير الإمام الى جاهلية آباء الخليفة، بل لعله يشير أيضاً الى ما عليه الخليفة بالذات من جاهلية اذ يقول له: ((فلا لؤم على امرئ مسلم، انما اللؤم لؤم الجاهلية)).

وحين قرأ الخليفة الأموي عبارة الإمام (عليه السلام) أدرك معناها تماماً، كما أدرك معنى ابنه سليمان اذ قال: ((يا أمير المؤمنين لشدّ ما فخر عليك علي بن الحسين!!)).

والخليفة بحنكته السياسية يرد على ابنه بما يوحي أنه أعرف من الابن بعاقبة الاصطدام مع إمام الشيعة فيقول له: ((يا بني لا تقل ذلك فإنها ألسن بني هاشم التي تغلق الصخر وتغرف من بحر، إن علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتصنّع الناس)).

ونموذج آخر من هذه المواقف رد الإمام (عليه السلام) على طلب تقدم به عبد الملك بن مروان. كان عبد الملك قد بلغه أن سيف رسول الله (صلى الله عليه وآله) عند الإمام. فبعث اليه من يطلب منه أن يهب السيف للخليفة، وهدده إن أبي بقطع عطاء بيت المال عنه.

فكتب اليه الإمام (عليه السلام):

((أما بعد فإن الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون، والرزق من حيث لا يحتسبون، وقال جل ذكره: {إن الله لا يحب كل خوان كفور} فانظر أيّنا أولى بهذه الآية)).

وفي غير هذه من المواقف نرى الإمام السجاد (عليه السلام) يتحرك بهدوء وباستتار في اتجاه تربية الأفراد وصنع الشخصية الإسلامية وفق مدرسة أهل البيت ومحاربة الانحرافات .. وبذلك قطع في الواقع الخطوة الأولى على تحقيق هدف مدرسة أهل البيت المتمثل بإقامة المجتمع الإسلامي المستظل بحكومة إسلامية صالحة على نموذج حكومة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي بن أبي طالب (عليه السلام). وكما ذكرنا من قبل لم يسلم الإمام (عليه السلام) وأتباعه رغم هذا النهج - المسالم على الظاهر - من بطش الجهاز الأموي وتنكيله. فمن أتباعه من قتل بشكل فظيع، ومنهم من سجن، ومنهم من تشرّد بعيداً عن أهل والديار، والإمام (عليه السلام) نفسه في مرة واحدة على الأقل سيق مقيداً بالاغلال في حالة مؤلمة من المدينة الى الشام، وتعرض مرات لألوان الأذى والتعذيب. ثم دسّ الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك له السمّ واستشهد سنة 95 هجرية.

استمرار منطقي لحياة الإمام السجاد (عليه السلام)

أصبح أتباع أهل البيت مجموعة متميزة ذات وجود مستقل، ودعوة أهل البيت التي اعترتها وقفة واحتجبت وراء ستار سميك بسبب حادثة كربلاء وما أعقبها من حوادث دموية كوقعة الحرة وثورة التوابين وبسبب بطش الأمويين، قد أصبح لها وجود منتشر وواضح في كثير من الأقطار الإسلامية خاصة في العراق والحجاز وخراسان، وأصبح لها ((تنظيم)) فكري وعملي. وولّت تلك الأيام التي قال الإمام السجاد (عليه السلام) عنها: إن أتباعه ما كانوا يزيدون فيها على عشرين شخصاً. وأضحى الإمام الباقر (عليه السلام) يدخل مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) في المدينة فيلتف حوله جمع غفير من أهل خراسان وغيرها من أصقاع العالم الإسلامي، يسألونه عن رأي الإسلام في مختلف شؤون الحياة. ويفد عليه أمثال طاووس اليماني وقتادة بن دعامة وأبو حنيفة وآخرون من أئمة المذاهب الفقهية لينتهلوا من علم الإمام أو ليحاجّوه في أمور مختلفة. وبرز شعراء يدافعون عن مدرسة أهل البيت، ويعبّرون عن أهدافها، منهم الكميت الذي رسم في هاشمياته أروع لوحة فنية في تصوير الولاء الفكري والعاطفي لآل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله). وتناقلت الألسن هذه الروائع الأدبية وحفظتها الصدور.

ومن جهة أخرى فإن خلفاء بني مروان أحسّوا خلال هذه الفترة بنوع من الطمأنينة، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبد الملك بن مروان (ت 86 هـ) خلال فترة حكمه التي استمرت عشرين عاماً أن يجمع كل المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان إلى أن الخلافة وصلتهم غنيمة باردة، لا كأسلافهم الذين كدحوا من أجلها مما أدى إلى انشغالهم باللهو والملذات التي تصاحب الشعور بالاعتدال والجاه والجلال.

مهما يكون الأمر حساسية خلفاء بني مروان تجاه مدرسة أهل البيت قد قلّت في هذا العصر، وأصبح الإمام وأتباعه في مأمن تقريباً من مطاردة الجهاز الحاكم.

وكان من الطبيعي أن يقطع الإمام خطوة رحبة في ظل هذه الظروف على طريق تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشيع نحو مرحلة جديدة. وهذا ما يميّز حياة الإمام الباقر (عليه السلام).

ويمكن تلخيص حياة الإمام الباقر (عليه السلام) خلال الأعوام التسعة عشر من إمامته (95-114 هـ) بما يلي:

إن أباه الإمام السجاد (عليه السلام) عندما حضرته الوفاة أوصى أن يكون ابنه محمداً إماماً من بعده في حضور سائر أبنائه وعشيرته وسلّمه صندوقاً.. تذكر الروايات أنه مملوء بالعلم.. وتذكر أن فيه سلاح رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال له: ((يا محمد هذا الصندوق فاذهب به إلى بيتك. ثم قال: أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكنه كان مملوءاً علماً)). لعل هذا الصندوق يرمز إلى أن الإمام السجاد سلّم ابنه محمداً مسؤولية القيادة الفكرية والعلمية (فالصندوق مملوء بالعلم) وسلّمه مسؤولية القيادة الثورية (سلاح النبي).

ومع بدء الإمام وأتباعه بنشاطهم الواسع في بث تعاليم أهل البيت (عليهم السلام)، يتسع نطاق انتشار الدعوة، ويتخذ أبعاداً جديدة تتعدى مناطقها السابقة في المدينة والكوفة، وتجد لها شيوعاً في أصقاع بعيدة عن مركز السلطة الأموية، وخراسان في مقدمة تلك البقاع كما تحدثنا الروايات التاريخية.

إن الواقع الفكري والاجتماعي المزري للناس كان يدفع الإمام وأتباعه نحو حركة دائبة لا تعرف الكلل والملل من أجل تغيير هذا الواقع والنهوض بالواجب الإلهي إزاء هذا الانحراف.

إنهم يرون غالبية الناس قد خضعوا للجو الفاسد الذي أشاعه بنو أمية، فغرقوا إلى الأذقان في مستنقع حياة آسنة موبوءة، حتى أضحوا كحكامهم لا يفقهون قولاً، ولا يصيخون لنصيحة سمعاً ((إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا)).

ومن جهة أخرى يرون دراسات الفقه والكلام والحديث والتفسير تنحو منحى استرضاء الطاغوت الأموي وتلبية رغباته. ومن هنا فإن كل أبواب عودة الناس إلى جادة الصواب كانت موصدة لولا نهوض مدرسة أهل البيت بواجبها ((وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا)).

اتجهت مدرسة أهل البيت فيما اتجهت إلى تقريع أولئك الذين باعوا ذممهم من العلماء والشعراء، في محاولة إلى إيقاف ضمائرهم أو ضمائر اتباعهم من عامة الناس.

نرى الإمام يقول للكميت الشاعر مؤنباً:

((امتدحت عبد الملك؟)) قال: ما قلت له يا إمام الهدى، وإنما قلت يا أسد، والأسد كلب، ويا شمس، والشمس جماد، ويا بحر، والبحر موات، ويا حية، والحية دُوبية منتنة، ويا جبل، وإنما هو حجر أصمّ. فتبسم الإمام وأنشد الكميّ بين يديه:

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

بهذه الميمية يضع الحدّ الفاصل بين الاتجاه العلوي والاتجاه الأموي في المكانة والسيرورة في صورة فنية رائعة خالدة.

وعكرمة تلميذ ابن عباس المعروف وصاحب المكانة العلمية المرموقة في المجتمع آنذاك، يذهب لمقابلة الإمام، فيؤخذ بهيبة الإمام وشخصيته ووقاره ومعنويته وفكره، فيقول له: ((يا بن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره، فما أدركني ما أدركني آنفأً)).

فقال له الإمام: ((إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)).

ومن الأبعاد الأخرى لنشاط مدرسة أهل البيت في هذه المرحلة سرد ما أحاط بأهل البيت رسول الله وأتباعهم من ظلم واضطهاد وقتل وتشريد وتعذيب في محاولة لاستثارة عواطف الناس الميتة، وتحريك ضمائرهم الرخوة، واستنهاض عزائمهم الراكدة، وتوجيههم وجهة ثورية حركية.

عن المنهال بن عمر قال: كنت جالساً مع محمد بن علي الباقر (عليه السلام) إذ جاءه رجل فقال له: كيف انتم؟ فقال الإمام الباقر:

((أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن؟ إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني إسرائيل، كان يذبح أبناءهم وتستحيا نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا. زعمت العرب أن لهم فضلاً على العجم، فقالت العجم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منا عربياً. قالوا لهم: صدقتم. وزعمت قريش أن لها فضلاً على غيرها من العرب، فقالت لهم العرب من غيرهم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد قرشياً. قالوا لهم: صدقتم. فإن كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس لأننا ذرية محمد، وأهل بيته خاصة وعترته، لا يشركنا في ذلك غيرها. فقال له الرجل: والله إني لأحبكم أهل البيت. قال: فاتخذ للبلاء جلباباً، فوالله إنه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدو البلاء ثم بكم، وبنا يبدو الرخاء ثم بكم)).

فما إن بدت على الرجل علامات الهياج جرّاء استشارات الإمام حتى سارع الإمام إلى رسم الطريق أمامه. إنه طريق مفروش بالدماء والدموع، والإمام رائد على هذا الطريق يصيبه البلاء أولاً قبل أن يصيب شيعته.

وفي دائرة أضيّق نرى أن علاقة الإمام بشيعته تتخذ خصوصيات متميزة، نراه بين هؤلاء الاتباع كالدماغ المفكر بين أعضاء الجسد الواحد، يغذيهم ويمدهم بالحوية والحركة والنشاط باستمرار.

وتتوفر بأيدينا وثائق تبين هذه الارتباط متمثلاً بإعطاء المفاهيم والتعاليم الصريحة لهؤلاء الاتباع، وبتنظيم مترابط محسوب بينهم.

منها وصية الإمام الباقر (عليه السلام) لجابر الجعفي في أول لقاء بالإمام أن لا يقول لأحد انه من الكوفة، وليظهر بمظهر رجل من أهل المدينة. وبذلك يعلم هذا التلميذ الجديد، الذي لمس الإمام فيه قدرة على حفظ الأسرار، درس الكتمان.. وهذا التلميذ الكفوء أصبح بعد ذلك صاحب سرّ الإمام. ويبلغ به الأمر مع الجهاز الحاكم أن يقول عنه النعمان بن بشير:

((كنت ملازماً لجابر بن يزيد الجعفي، فلما أن كنا بالمدينة، دخل عليّ أبي جعفر (عليه السلام) فودّعه وخرج من عنده وهو مسرور، حتى وردنا الأخرجة (من نواحي المدينة) يوم جمعة فصلينا الزوال فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طوال آدم (أسمر) معه كتاب فناوله، فقبله ووضع على عينيه، وإذا هو من محمد بن علي (الباقر) إلى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب. فقال له: متى عهدك بسيدي؟ فقال: الساعة، فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة. قال: ففكّ الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى عليّ آخره، ثم امسك الكتاب فما رأيت ضاحكاً ولا مسروراً، حتى وافى الكوفة.

يقول النعمان بن بشير: فلما وافينا الكوفة ليلاً بتّ ليلتي، فلما أصبحت أتيت جابر الجعفي إعظاماً له فوجدته قد خرج عليّ وفي عنقه كعاب قد علّقها وقد ركب قصبه (كما يفعل المجانين) وهو يقول: أجد منصور بن جمهور.. أميراً غير مأمور، وأبياتاً من نحو هذا، فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً، ولم أقل له، وأقبلت أبكي لما رأيت، واجتمع عليّ وعليه الصبيان والناس، وجاء حتى دخل الرّحبة، وأقبل يدور مع الصبيان، الناس يقولون: جنّ جابر بن يزيد. فوالله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبد الملك اليّ وإليه أن أنظر رجلاً يقال له: جابر بن يزيد الجعفي فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه. فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفي؟ قالوا، أصلحك الله كان

رجلاً له علم وفضل وحديث، وحجّ فجنّ وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم.
قال: فأشرف عليه فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب. فقال: الحمد لله الذي عافاني من قتله)).

هذا النموذج من نماذج الارتباط بين الإمام وخاصة أتباعه، يوضّح دقّة التنظيم والارتباط، ويبين كذلك نموذجاً لموقف السلطنة الحاكمة من هؤلاء الاتباع، ويؤكد أن الجهاز الحاكم لم يكن غافلاً تماماً عن علاقة الإمام بأتباعه المقربين، بل كان يراقب هذه العلاقات ويحاول اكتشافها ومجابهتها.

وبالتدريج يبرز جانب المجابهة في الحياة الإمام الباقر (عليه السلام) وفي حياة الشيعة ليسجل فصلاً آخر في حياة الأئمة أهل البيت (عليهم السلام).

النصوص التاريخية الموجودة بين أيدينا وهكذا الروايات الحديثية لا تتحدث بصراحة عن حركة مقاومة سياسية حادة ينهض بها الإمام. وهذا يعود إلى عوامل كثيرة منها جوّ البطش والتنكيل المهيمن على المجتمع مما يفرض عنصر التقية بيت اتباع الإمام الذين هم المطلعون الوحيدون على حياة الإمام السياسية.. ولكن ردود الفعل المتشدّدة التي يبديها العدو تبين عمق العمل الجهادي. فحين يتخذ جهاز حاكم مقتدر كجهاز عبد الملك بن مروان، الذي يعتبر أقوى حاكم أموي، ضد الإمام الباقر (عليه السلام) كل أسباب الشدّة والحدّة، فإن ذلك يدل دون شك على إحساس الخليفة بالمخاطر التي تواجهه جرّاء حركة الإمام وأتباعه. لو كان الإمام منهمكاً فقط بنشاط علمي، لا ببناء فكري وتنظيمي، فإن الجهاز الحاكم لم يكن من مصلحته أن يتشدّد مع الإمام، لأن ذلك يدفع بالإمام وأتباعه إلى موقف ساخط متشدّد كالذي اتخذته الثائر العلوي شهيد فخر الحسين بن علي من السلطنة.

باختصار، موقف السلطنة المتشدّد من الإمام الباقر (عليه السلام) يمكن فهمه على أنه رد فعل لما كان يمارسه الإمام من عمل معارض للسلطة.

من الأحداث الهامة في أواخر حياة الإمام الباقر (عليه السلام) استدعاء الإمام إلى الشام عاصمة الخلافة الأموية. فالخليفة الأموي أراد أن يستوثق من موقف الإمام تجاه الجهاز الحاكم فأمر باعتقاله

وإرساله مخفوراً إلى الشام. (وفي بعض الروايات أن الحكم هذا شمل ابنه الشاب أيضاً جعفرًا الصادق).

يؤتى بالإمام إلى قصر الخليفة. وهشام أملى على حاشيته طريقة مواجهة الإمام لدى وروده. تقرر أن يتدئ الخليفة ثم تليه الحاشية بإلقاء سيول التهم على الإمام، وكان يستهدف في ذلك أمرين: أولهما إضعاف معنويات الإمام وخلق حالة من الانهيار النفسي فيه. والثاني: محاولة إدانة الإمام في مجلس يضم زعمي الجبهتين (جبهة الخلافة وجبهة الإمامة)، ثم نقل هذه الإدانة عن طريق أبواب البلاط كالخطباء ووعاظ السلاطين والجواسيس وبذلك يسجل لنفسه انتصاراً على خصمه.

يدخل الإمام مجلس الخليفة، وخلاف ما اعتاده الداخلون من السلام على الخليفة بإمرة المؤمنين، يتوجه إلى كل الحاضرين، ويشير إليهم جميعاً ويقول: السلام عليكم.. ودون أن ينتظر الأذن بالجلوس يأخذ مكانه في المجلس. وهذا الموقف من الإمام أضرّم نار الحسد والحقد في قلب هشام.. وبدأ هشام على الفور يقول: يا محمد بن علي، لا يزال الرجل منكم قد شقّ عصا المسلمين، ودعا إلى نفسه، وزعم أنه الإمام سفهاً وقلة علم، وجعل يوبّخه.

وبعد هشام أخذ أفراد بطانته يرددون مثل هذه التهم والتوبيخ.. والإمام ساكت في كل هذه المدّة ومطرق بوقار ينتظر فرصة الإجابة.. وحين أفرغت البطانة ما في كنانتها وخيّم السكوت على المجلس، نهض الإمام وتوجه إلى الحاضرين، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه، خاطب المجلس بعبارات قصيرة قارعة بيّن تفاهة هذه البطانة وانقيادها البهيمي كما بيّن فيها مكانته ومكانة أهل البيت وفق معايير إسلامية، واستخف بكل ما يحيط بالخليفة وحاشيته من هيل وهيلمان ومكانة وسلطان، فقال:

((أيها الناس! أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم، وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملك معجّل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك، لأننا أهل العاقبة. يقول الله عزّ وجلّ: والعاقبة للمتقين)).

عبارات تظلم وتهكم وتبشير وتهديد وإثبات وردّ جمل موجزة ذات وقع مثير تفرض على سامعها الإيمان بحقانية قائلها.. ولم يكن أمام هشام سبيل سوى الأمر بسجن الإمام.

الإمام في سجنه واصل علمه التغييرى فأثر على من معه في السجن. بلغ الأمر هشاماً فكبر عليه أن يرى حدوث مثل ذلك في عاصمته المحصنة من التأثير العلوي. فأمر أن يؤخذ السجن ومن معه على مركب سريع (البريد) ويرسل إلى المدينة حيث مسكنه ومحل إقامته، وأمر أن لا يتعامل أحد في الطريق مع هذه القافلة المغضوب عليها ولا يزودها بماء أو طعام.

مرت ثلاثة أيام من السير المتواصل انتهى خلالها ما في القافلة من ماء وطعام. ووصلوا (مدين). وأغلق أهل المدينة حسب ما لديهم من أوامر أبواب مدينتهم، وأبوا أن يبيعوا متاعاً. واشتد على أتباع الإمام الجوع والعطش. صعد الإمام على مرتفع يطل على المدينة ونادى بأعلى صوته:

((يا أهل المدينة الظالم أهلها. يقول الله: {بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ})).

يقول الراوي: وكان بين أهل المدينة شيخ كبير فأتاهم فقال: يا قوم هذه والله دعوة شعيب (عليه السلام). والله لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذن من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدّقوني وأطيعوني.. فإني لكم ناصح.

استجاب أهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا إلى أبي جعفر وأصحابه الأسواق.

وآخر فصل في هذه الرواية يبين أيضاً بطش الخليفة العباسي وتجبره. فبعد أن فتح أهل المدينة أبوابها للإمام وصحبه، كُتب بجميع ذلك إلى هشام. فكتب هشام إلى عامله على مدين يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته.

ومع ذلك، يتجنب الإمام أي مواجهة حادة ومجابهة مباشرة مع الجهاز الحاكم، فلا يعمد إلى سيف، ولا يسمح للأيدي المترعة إلى السلاح أن يشهره، ويوجهها توجيهاً حكيماً، وسيف اللسان أيضاً لا

يشهره اذا لم يتطلب عمله التغييرى الاساسى الجذرى ذلك. ولا يسمح لأخيه زيد، الذى بلغ من الغضب مبلغه وثارى عواطفه أىما ثورة، أن يخرج (يثور) بل يركز نشاطه العام على التوجيه الثقافى والفكرى.. وهو بناء أساس ايدىولوجى فى اطار مراعاة التقية السياسية.

ولكن هذا الاسلوب لم يكن يمنع الإمام - كما أشرنا - من توضيح (حركة الإمامة) لأتباعه الخالص. وإذكاء عمل الشيعة الكبير، وهو إقامة النظام السياسى الصحىح العلوى فى قلوب هؤلاء، بل يعمد أحياناً الى اثاره عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطريق. والتلويح بمستقبل مشرق هو أحد من السبل التى مارسها الإمام الباقر (عليه السلام) مع أتباعه. وهو يشير الى تقويم الإمام (عليه السلام) لمرحلة التى يعيشها من الحركة.

يقول الحكم بن عيينة: بينا أنا مع أبى جعفر (عليه السلام) والبيت غاص بأهله اذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزة (عكازة) له حتى وقف على باب البيت، فقال: السلام عليك يا بن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم سكت. فقال أبو جعفر: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم، ثم سكت حتى أجابه القوم جميعاً، وردوا عليه السلام. ثم أقبل بوجهه على الإمام وقال: يا بن رسول الله أدنى منك جعلنى الله فداك. فوالله إنى لأحبكم وأحب من يحبكم، ووالله ما أحبكم وأحب من يحبكم لطمع فى دنيا، وإنى لأبغض عدوكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لو ترى كان بينى وبينه. والله إنى لأحلُّ حلالكم وأحرّم حرامكم وانتظر أمركم، فهل ترجو لى جعلنى الله فداك؟ فقال الإمام: إىّ إىّ، حتى أقعده الى جنبه، ثم قال:

((أىها الشيخ، إن أبى على بن الحسين (عليه السلام) أتاه رجل فسأله عن مثل الذى سألتنى عنه، فقال له أبى (عليه السلام): إن تمت ترد على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعلى على والحسن والحسين وعلى على بن الحسين، ويثلىج قلبك، ويبرد فؤادك، وتقرّ عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين.. وإن تعش ترى ما يقّر الله به عينك، وتكون معنا فى السنام الأعلى)). قال الشيخ وهو مندهش من عظمة البشرى: كيف يا أبى جعفر. فأعاد عليه الكلام، فقال الشيخ: الله أكبر يا أبى جعفر، إن انا متّ أرد على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعلى على والحسن والحسين وعلى على بن

الحسين وتقرّ عيني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي واستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي ههنا، وإن أعش أرى ما يقرّ الله به عيني، فأكون معكم في السنام الأعلى؟ ثم أقبل الشيخ ينتحب حتى لصق الأرض. وأقبل اهل البيت ينتحبون لما يرون من حال الشيخ. ثم رفع الشيخ رأسه وطلب من الإمام أن يناوله يده فقبلها ووضعها على عينه وخذّه، ثم ضمّها الى صدره، وقام فودّع وخرج، والإمام ينظر اليه ويقول: ((من أحب أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا)).

مثل هذه التصريحات، تذكى الأمل في قلوب تعيش جوّ الاضطهاد والكبت، فتكسبها زخماً ودفعاً نحو الهدف المنشود المتمثل في إقامة النظام الإسلامي العادل.

تسعة عشر عاماً من إمامة الباقر (عليه السلام) تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح.. تسعة عشر عاماً من التعليم الأيديولوجي، والبناء، والتكتيك النضالي، والتنظيم، وصيانة وجهة الحركة، والثقية، واذكاء روح العمل.. تسعة عشر عاماً من مسير شائك وعر يتطلب كثيراً من الجهد والجهد. وحين أشرقت هذه الأعوام على الانتهاء وأوشكت شمس عمره المبارك على المغيب، تنفس أعداؤه الصعداء، لأنهم بذهاب هذا القائد الموجه سوف يتخلصون من مصدر إثارة طالما قضّ مضاجعهم وسرق النوم من عيونهم. لكن الإمام خيّب آمالهم وفوّت عليهم هذه الفرصة، حين جعل من وفاته مصدر عطاء، ومنطلق إثارة، ووسيلة توعية مستمرة! لقد وجّه ولده الصادق (عليه السلام) في اللحظات الأخيرة من حياته توجيهاً يمثل نموذجاً رائعاً من نماذج الثقية التي مارسها الإمام الباقر (عليه السلام) والاسلوب الذي استعمله في مرحلته الزمنية الخاصة. في الرواية عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: ((قال لي أبي: يا جعفر أوقف لي من مالي كذا وكذا النوادب تندبني عشر سنين بمنى ايام منى)).

وهذه الرواية لم يقف عندها من بحث حياة الإمام الباقر وغفلوا عما فيها من دلالات كبيرة. لقد خلف الإمام (800) درهم، وأوصى أن يخصص جزء منها لمن يندبه في منى.. وندب الإمام في منى له معنى كبير. إنه عملية إحياء ذلك المصدر الذي كان يشعّ دائماً بالتوعية والإثارة وخلق روح الحماس والمقاومة.

واختيار منى بالذات يعني مواصلة العمل في وسط تمركز الوافدين من كل أرجاء العالم الإسلامي، خلال فترة الاستقرار الوحيدة في موسم الحج. فكل مناسك الحج يمر بها الحاج وهو في حركة دائبة مستمرة، إلا في منى، حيث يبني الليلتين أو الثلاث، فيتوفر لديه الوقت الكافي لكي يسمع ويطلع. وندب الإمام في هذا المكان سيثير التساؤل عن شخصية هذا المتوفى، من هو؟ فيحصلون الجواب من أهل المدينة الذين عاصروه. إنه من أبناء رسول الله، وأستاذ الفقهاء والمجتهدين. ولماذا يندب في هذا المكان؟ لم يكن موته طبيعياً؟ من الذي قتله أو سمّه؟ هل كان يشكل خطراً على الجهاز الأموي؟ .. وعشرات الأسئلة التي كانت تثار حين يندب الإمام في هذا المكان ثم يحصل السائلون على الاجابة.. وتنتشر الأخبار في أطراف البلاد وأكنافها بعد عودة الحجيج الى أوطانهم. وكان هناك في مواسم الحج من يأتي من الكوفة والمدينة ليجيب عن هذه التساؤلات مغتنماً فرصة تجمع المسلمين، وليثّ روح التشيع من خلال أعظم قناة إعلامية آنذاك.

هكذا عاش الإمام، وهكذا خطط لما بعد وفاته، فسلام عليه يوم ولد ويوم جاهد ويوم استشهد في سبيل الله ويوم يبعث حياً.

توفى الإمام الباقر (عليه السلام) وهو في السابعة والخمسين من عمره، وعلى عهد هشام بن عبد الملك، وهو من أكثر ملوك بني أمية اقتداراً. ورغم ما كانت تحيط بالحكومة الأموية آنذاك من مشاكل ومتاعب، فإن ذلك لم يصرفها عن التآمر على القلب النابض للشيعة، أي الإمام الباقر، فأوعز هشام الى عملائه أن يدسّوا السم للإمام، وحقق بذلك انتصاره في القضاء على أخطر أعدائه.

وتحمّل الإمام الصادق (عليه السلام) مسؤولية مواصلة المسيرة في ظروف معقّدة وصعبة للغاية.

فالانتفاضات تنشب في طول البلاد وعرضها، والولاة منهمكون بجمع الأموال والثروات الطائلة، والطاعون والقحط يضرب مناطق واسعة منها خراسان والعراق، والجهاز الحاكم يبطش دون رحمة، ويخلق حالة من الذل والخنوع بين الناس. والمنشغلون بالعلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير لم يكن خطرهم غالباً يقلّ عن خطر الساسة والحكّام، وهم الذين يفترض بهم أن يكونوا ملاذ الناس وملجأهم، كثير من هؤلاء كانوا يدبّجون الفتاوى ليرضوا السلطان والولاة. وكثير منهم كانوا يشغلون

أنفسهم ويشغلون الناس بتوافه الأمور، ويشيرون النزاعات الكلامية الفارغة التي لا تمتّ بصلة إلى الإسلام وإلى معاناة الجماهير. مهمة الإمام الصادق (عليه السلام) في هذه الظروف المظلمة هي ما ذكرناه بشأن مهمة الإمامة، وتتلخص في طرح الفكر الإسلامي الصحيح، أي تبيين الإسلام كما جاء في القرآن وسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع مكافحة كل الانحرافات والتشويهات الجاهلة والمعرضة، وكذلك التخطيط لإقامة نظام العدالة الإسلامية، وصيانة هذا النظام في حالة إقامته.

كلا المهمتين: المهمة الفكرية والمهمة السياسية، تشكّان خطراً كبيراً على النظام الحاكم. ليست المهمة السياسية وحدها تثير سخط السلطة، فالمهمة الفكرية أيضاً تلغي تلك الأفكار والمفاهيم المنحرفة التي قدمها السلطان ووعّاهه باسم الدين إلى المجتمع. من هنا فإن العملية الفكرية لها الأولوية، لأنها تقضي على الزيف الديني الذي يستند إليه الجهاز الحاكم في مواصلة ظلمه. من جهة أخرى فإن الأوضاع السائدة مستعدة للفكر الشيعي الثوري، والحرب والفقر والاستبداد عوامل تغذي روح الثورة، أضف إلى ذلك عامل الأجواء التي وقرها نشاط الإمام الباقر (عليه السلام) في المناطق القريبة والنائية.

إن الاستراتيجية العامة للإمامة هي النهوض بثورة توحيدية علوية. ومتطلّباتها هي:

أولاً: إيجاد تحمل فكر الإمامة وتهضمه، وتتطلع بشوق إلى تطبيقه.

وثانياً: إيجاد مجموعة منظمّة مجاهدة مضحية.

وهذه المتطلّبات تستلزم بدورها نشر الدعوة في جميع أرجاء العالم، وإعداد الأرضية النفسية لتقبّل الفكر الإسلامي الثائر في جميع الأقطار، وتستلزم أيضاً دعوة أخرى لإعداد افراد مضحين متفانين يشكلون التنظيم السريّ للدعوة.

وهذا هو سرّ صعوبة الدعوة على طريق الإمامة الحقّة. فالدعوة الرسالية التي تستهدف القضاء على الطاغوت، وعلى التفرعن والتجبر والعدوان والظلم في المجتمع، وتلتزم بالمعايير الإسلامية، لا بدّ أن

تستند إلى إرادة الجماهير وقوتها وإيمانها ونضجها. خلافاً لتلك الدعوات التي ترفع شعار محاربة الطغاة، وهي تمارس في الوقت نفسه أعمال الطغاة والظلمة في حركتها، دون أن تتقيد بمبادئ أخلاقية واجتماعية. فمثل هذه الدعوات لا تواجه صعوبات الدعوات الرسالية الهادفة، وهذا هو سرّ عدم تحقق أهداف حركة الإمامة على المدى العاجل، وهو أيضاً سرّ الانتصار السريع للحركات الموازية لحركة الإمامة (مثل حركة العباسيين).

الظروف المساعدة والأرضية المناسبة التي وقّرها نشاط الإمام السابق - الباقر (عليه السلام) - أدّت إلى أن يظهر الإمام الصادق (عليه السلام) - في جوّ العذاب الطويل الذي عانى منه الشيعة - بمظهر الفجر الصادق الذي ينتظره أتباع أهل البيت في أيامهم. والإمام الباقر (عليه السلام) ذكر بالإشارة والتنصريح ما يركز هذا المفهوم.

عن جابر بن يزيد الجعفي: ((سئل الإمام الباقر (عليه السلام) عن القائم فضرب يده على أبي عبد الله (عليه السلام) وقال: هذا والله ولدي قائم آل بيت محمد (صلّى الله عليه وآله))).

والقائم هنا طبعاً غير قائم آل محمد في آخر الزمان، وهو المهدي (عليه السلام) الذي تواترت الروايات لدى كل المسلمين أنه يظهر في آخر الزمان، وأنه الخليفة الثاني عشر من خلفاء رسول الله. القائم هنا بمعناه اللغوي ينطبق على كل من ينهض بوجه الظلم والاستبداد، وهو اصطلاح معروف في مدرسة أهل البيت، ولا يعني ذلك أن يكون القائم بالسيف بالضرورة. بل إنه يقوم بهجوم ثقل خطير، سواء في اسلوب النشاط الفكري أو التنظيمي أو بأية صورة أخرى تستهدف مقارعة الظالمين ومهاجمتهم. فالإمام الباقر (عليه السلام) يركّز هنا على مفهوم نهوض الإمام الصادق (عليه السلام) بمسؤولية كبيرة تجاه السلطة القائمة، ولا يركّز على النتيجة.. بل في رواية أخرى يتحدث بلغة تكاد تكون يائسة من إمكان انتصار حركة الإمامة على الوضع السياسي القائم.

ومن الروايات التي يركّز الإمام الباقر (عليه السلام) على الدور الذي سينهض به الإمام الصادق (عليه السلام) ما رواه أبو الصباح الكناني قال: ((نظر أبو جعفر إلى ابنه أبي عبد الله فقال: ترى هذا؟ هذا

من الذين قال الله تعالى: ﴿ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾.

ولعل تصريحات الإمام هذه هي التي أشاعت فكرة قيام الإمام الصادق وخلافته بين الشيعة، وجعلت أصحاب الباقر والصادق (عليهما السلام) يترقبون ساعة الصفر بين آونة وأخرى.

في رجال الشيخ الكشي رواية يمكن أن نفهم منها هذه الحالة السائدة بين أتباع أهل البيت آنذاك:

روى ابن مسكان عن زرارة، أنه سأل أبا عبد الله (عليه السلام) عن رجل من أصحابنا مختفٍ عن غرامة. فقال: أصلحك الله، إن رجلاً من أصحابنا كان مختفياً من غرامة، فإن كان هذا الأمر قريباً صبر حتى يخرج مع القائم، وإن فيه تأخير صالح غرامة؟ فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): يكون، فقال زرارة: يكون الى سنة؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): يكون إن شاء الله، فقال زرارة: يكون الى سنتين؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): يكون إن شاء الله، فخرج زرارة فوطّن نفسه على أن يكون الى سنتين فلم يكن، فقال: ما كنت أرى جعفرأ إلا أعلم مما هو.

وعبارة ((هذا الأمر)) في عرف أتباع أهل البيت كناية عن المستقبل الموعود لهم، أي استلزام زمام الحكم او القيام بما يقربهم من ذلك كالثورة المسلحة مثلاً. والقائم هو الذي يقود تلك العملية.

وفي رواية أخرى يذكر هشام بن سالم، وهو أيضاً من وجوه الشيعة المعروفة، أن زرارة قال له: لا ترى على أعوادها غير جعفر، قال: فلما توفي أبو عبد الله (عليه السلام) أتيتك فقلت له: تذكر الحديث الذي حدّثني به؟ وذكرته له، وكنت أخاف أن يجحدنيه، فقال: إني والله ما كنت قلت ذلك إلا برأبي.

من مجموع ما تقدم نفهم ان الإمام الصادق (عليه السلام) كان في نظر أبيه وفي نظر الشيعة مظهر آمال الإمامة والتشيع. وكأن سلسلة الإمامة قد ادّخرته ليجسد مساعي الإمام السجاد والإمام الباقر (عليهما السلام). كأنه هو الذي يجب أن يعيد بناء الحكومة العلوية والنظام التوحيدي، يجب أن ينهض نهضة إسلامية أخرى. الإمامان السابقان طويا المراحل الصعبة الشاقة لهذا الطريق اللاحب،

وعليه أن يقطع المرحلة الأخيرة، والظروف - كما ذكرنا - قد تهيأت، والإمام استثمر هذه الظروف لينهض برسالته الجسيمة.

منذ استلام المسؤولية حتى الوفاة، قضى 33 عاماً في جهاد متواصل، وخلال هذه الأعوام كانت الظروف في مد وجزر، مرة تتجه لصالح مدرسة أهل البيت، ومرة أخرى تعاكسها، مرة تبعث على التفاؤل وعلى أن النصر قريب، ومرة أخرى تشتد الضغوط وتختنق الأنفاس، فيخيّل الى أصحاب الإمام أن كل الآمال قد تبدّدت. والإمام الصادق (عليه السلام) في كل هذه الأحوال ماسك بدفة القيادة بعزم وتصميم، يجتاز بالسفينة عبر هذه الأمواج المتلاطمة الممزوجة بالأمل واليأس، لا يفكر إلا بما يجب قطعه في المستقبل من أشواط، باعثاً الجهد والنشاط والايمان في اتباعه للوصول الى ساحل النجاة.

ويلزمنا أن نشير هنا الى ظاهرة مؤسفة تواجه كل الباحثين في حياة الإمام الصادق (عليه السلام)، وهي الغموض الذي يكتنف السنين الأولى لبدایات إمامة الصادق (عليه السلام) التي اقترنت بأواخر أيام بني أمية. كانت حياة صاحبة متلاطمة مليئة بالحوادث الجسام، يمكن أن نفهم بعض ملامحها من خلال مئات الروايات. غير أن المؤرخين والمحدثين لم يعرضوا لنا هذه الفترة بشكل مرتّب منسجم مترابط، ولا بد للباحث أن يعتمد على القرائن، وأن يلاحظ التيارات العامة في ذلك الزمان، ويقرن كل رواية بما حصل عليه من معلومات مسبقة، ليفهم محتوى الرواية وتفصيلها.

ولعل أحد أسباب هذا الابهام يكمن في سرية حركة الإمام وأتباعه.. فالتنظيم السري القائم على أسس صحيحة يجب أن تبقى المعلومات عنه سرية مخفية، وأن لا يطلع عليها من هو خارج التنظيم. ولا تنتشر هذه المعلومات إلا بعد أن تحقق الحركة انتصارها. ومن هنا تتوفر لدينا معلومات وافية عن تفاصيل الاتصالات السرية في حركة العباسيين، لأن حركتهم انتصرت. ولا شك أن حركة أهل البيت لو قدّر لها أن تنتصر وتستلم زمام الأمور، لأطلعنا على أسرار تنظيمها الواسع.

وثمة سبب آخر يمكن أن يكون عاملاً في هذا الغموض، هو أن المؤرخين كانوا يدوّنون عادة ما يرضي السلطان، ولذلك نرى في كتبهم تفاصيل حياة الخلفاء ولهوهم ولعبهم وسهراتهم ومجالس طربهم، بينما لا نرى شيئاً يؤبه له بشأن الثائرين والمظلومين والمسحوقين، لأن مثل هذه المعلومات تحتاج من

الباحث أن يتحرّى ويبحث ويخاطر، بينما حياة الخلفاء مادة جاهزة، وغنيمة باردة تكسب الرضا وتستدر العطاء.

والمؤرخون الخاضعون للخلافة العباسية استمروا يكتبون على هذا المنوال مدة خمسمائة سنة بعد حياة الإمام الصادق (عليه السلام)، ومن هنا لا يمكن أن نتوقع العثور على شيء معتدّ به من المعلومات عن حياة الإمام الصادق (عليه السلام) أو أي إمام من أئمة الشيعة في مثل هذه المصادر.

الطريق الوحيد الذي يستطيع أن يهدينا الى الخط العام لحياة الإمام الصادق (عليه السلام) هم اكتشاف المعالم الهامة لحياة الإمام من خلال الأصول المتناثرة العامة لفكر الإمام وأخلاقه. ثم نبحت في القرائن والأدلة المتناثرة التاريخية والقرائن الأخرى غير التاريخية لتتوصل الى التفاصيل.

معالم حياة الإمام الصادق (عليه السلام)

والمعالم الهامة البارزة في حياة الإمام الصادق (عليه السلام) وجدتها من منظار بحثنا تتلخص بما يلي:

1- تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها.

2- بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

3- إقامة تنظيم سرّي إيديولوجي - سياسي.

وطريقة بحثنا أن ندرس كل واحد من هذه المعالم، ونضع في النهاية فهرساً لنشاطات الإمام (عليه السلام)، وأن يكون ذلك قدر المستطاع بأسلوب المؤرخين لا بأسلوب المحدّثين.

1- تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها

هذا الموضوع يشكل أبرز خصائص دعوة أئمة أهل البيت، منذ السنوات الأولى التي أعقبت رحيل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله). كانت مسألة إثبات إمامة أهل البيت (عليهم السلام) تشكل طليعة الدعوة في كل أعصار الإمامة.. هذه المسألة نشاهدها أيضاً في ثورة الحسين بن علي (عليهما السلام)، ونشاهدها بعد ذلك أيضاً في ثورات أبناء أئمة أهل البيت، مثل زيد بن علي. ودعوة الإمام الصادق (عليه السلام) لم تخرج عن هذا النطاق أيضاً.

قبل أن نستعرض وثائق هذا الموضوع، يجب علينا أن نعرف أولاً مفهوم ((الإمامة)) في الفكر الإسلامي. وما معنى الدعوة إلى الإمامة؟

كلمة ((الإمامة)) تعني في الأصل القيادة بمعناها المطلق، وفي الفكر الإسلامي تطلق غالباً على مصداقها الخاص، وهو القيادة في الشؤون الاجتماعية، الفكرية منها والسياسية.

وأينما وردت في القرآن مشتقات لكلمة الإمامة (إمام، أئمة)، فيراد بها هذا المعنى الخاص لقيادة الأمة. ففي بعض المواضع يقصد بها القيادة الفكرية، وفي مواضع أخرى يراد بها القيادة السياسية، أو الاثنيتين معاً.

بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله) وظهور الانشقاق الفكري والسياسي بين المسلمين اتخذت كلمة الإمامة والإمام مكانة خاصة، لأن مسألة القيادة السياسية شكّلت المحور الأساس للاختلاف. والكلمة كان لها في البداية مدلولها السياسي أكثر من أي مدلول آخر، ثم انضمت إليها بالتدرج معانٍ أخرى، حتى أصبحت مسألة ((الإمامة)) تشكل في القرن الثاني أهم مسائل المدارس الكلامية ذات الاتجاهات الفكرية المختلفة، وكانت هذه المدارس تطرح آراءها بشأن شروط الإمام وخصائصه، أي شروط الحاكم في المجتمع الإسلامي، وهو معنى سياسي للإمامة.

إن الإمامة في مدرسة أهل البيت - التي يرى أتباعها أنهم يمثلون أنقى تيار فكري إسلامي - لها المعنى نفسه، ونظرية هذه المدرسة بشأن الإمامة تتلخص فيما يلي:

الإمام والزعيم السياسي في المجتمع الإسلامي يجب أن يكون منصوباً من الله، بإعلان من النبي. ويجب أن يكون قائداً فكرياً ومفسراً للقرآن وعالمياً بكل دقائق الدين ورموزه، ويجب أن يكون معصوماً مبرراً من كل عيب خلقي وأخلاقي وسببي. ويجب أن يكون من سلالة طاهرة نقية و... .

وبذلك فإن الإمامة كانت في العرف الإسلامي خلال القرنين الأول والثاني تعني القيادة السياسية، وفي العرف الخاص بأتباع أهل البيت تعني، إضافة إلى القيادة السياسية، القيادة الفكرية والأخلاقية أيضاً.

فالشيعة تعترف بإمامة الفرد حين يكون ذلك الفرد متمتعاً بخصائص هي - إضافة إلى قدرته على إدارة الأمور الاجتماعية - مقدرته على التوجيه والإرشاد والتعليم في الحقل الفكري والديني، والتزكية الخلقية. وإن لم تتوفر فيه هذه المقدرة لا يمكن أن يرقى إلى مستوى ((الإمامة الحققة)). وليس بكافٍ - في نظرهم - حسن الإدارة السياسية والاقتدار العسكري والفتوحات وأمثالها من الخصائص التي كانت معياراً كافياً لدى غيرهم.

فمفهوم الإمامة لدى أتباع أهل البيت - إذن - يتجه إلى إعطاء إمامة المجتمع صفة قيادة ذلك المجتمع في مسيرته الجماعية والفردية. فالإمام رائد مسيرة التعليم والتربية وقائد المسيرة الحياتية. ومن هنا كان ((النبي)) (صلى الله عليه وآله) إماماً أيضاً، لأنه القائد الفكري السياسي للمجتمع الذي أقام دعائه. وبعد النبي تحتاج الأمة إلى إمام يخلفه ويتحمل عبء مسؤولياته، (بما في ذلك المسؤولية السياسية). ويعتقد الشيعة أن النبي نصّ على خلافة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ثم تنتقل الإمامة بعده إلى الأئمة المعصومين من ولده.

ولابدّ من الإشارة إلى أن تداخل المهام الثلاث للإمامة: القيادة السياسية، والتعليم الديني، والتهذيب الأخلاقي والروحي في الإمامة الإسلامية ناشئ من عدم وجود تفكيك بين هذه الجوانب الثلاثة في المشروع الإسلامي للحياة البشرية. فقيادة الأمة يجب أن تشمل قيادتها في هذه الحقول الثلاثة أيضاً، وبسبب هذه السعة وهذه الشمولية في مفهوم الإمامة لدى الشيعة كان لابد أن يعين الإمام من قبل الله سبحانه.

نستنتج مما سبق أن الإمامة ليست، كما يراها أصحاب النظرة السطحية، مفهوماً يقابل ((الخلافة)) و ((الحكومة)) أو منصباً منحصرًا بالأمر المعنوية والروحية والفكرية، بل إنها في الفكر الشيعي ((قيادة الأمة)) في شؤون دنياها، وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية (رئيس الدولة). وأيضاً في شؤون التعليم والإرشاد والتوجيه المعنوي والروحي، وحلّ المشاكل الفكرية وتبيين الإيديولوجية الإسلامية. ((قيادة فكرية)).

وهذه المسألة الواضحة أضحت - مع الأسف - غريبة على أذهان أكثر المعتقدين بالإمامة، ولذلك نرى من الضروري عرض بعض النماذج من مئات الوثائق القرآنية والحديثية في هذا المجال:

في كتاب ((الحجة)) من ((الكافي)) حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يذكر فيه بالتفصيل ما يرتبط بمعرفة الإمام ووصف الإمام، ويتضمّن معاني عميقة ورائعة.

من ذلك ما ورد بشأن الإمامة بأنها: ((هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله، وخلافة الرسول، ومقام أمير المؤمنين (عليه السلام) وميراث الحسن والحسين (عليه السلام)، إن الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين، إن الإمامة أسّ الإسلام النامي، وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف)).

وحول الإمام أنه:

((النجم الهادي، والماء العذب، والمنجي من الردى، والسحاب الماطر، ومفزع العباد في الداهية، وأمين الله في خلقه، وحبّته على عباده، وخليفته في بلاده، والداعي إلى الله، والذاب عن حرم الله، ونظام الدين، وعزّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين)).

كل ما كان يمارسه النبي (صلّى الله عليه وآله) من مسؤوليات ومهام يتحملها علي (عليه السلام) والأئمة من ولده.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق (عليه السلام) نرى تأكيداً على إطاعة ((الأوصياء)) وتوضّح الرواية أن الأوصياء هم أنفسهم الذين عبّر عنهم القرآن بأولي الأمر.

مئات الروايات المتفرقة في الأبواب المختلفة تصرّح أن مفهوم الإمام والإمامة في الفكر الشيعي ما هو إلا القيادة وإدارة شؤون الأمة المسلمة، وأن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هم الأصحاب الحقيقيون للحكومة. وتدل جميعاً بما لا يقبل الشك على أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في ادّعائهم الإمامة كانوا لا يقتصرون بالمطالبة على المستوى الفكري والمعنوي، بل كانوا يطالبون بالحكومة أيضاً. ودعوتهم على هذا النطاق الواسع الشامل إنما هي دعوة لحركة سياسية عسكرية لاستلام السلطة.

هذه الحقيقة ظلت خافية على الباحثين في العصور التالية، بينما كانت في فهم أصحاب الأئمة والمعاصرين لهم من أوضح الحقائق، حتى أن ((الكميت)) في إحدى قصائده الهاشميات يصف أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بأنهم ساسة يقودون الناس بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي يمارسها الحكام الظلمة الذين يعاملون الناس كالبهائم.

نعود إلى الموضوع الأصلي وهو أن بيت القصيد في دعوة الإمام الصادق (عليه السلام) وسائر أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كان يدور حول ((الإمامة)). ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية، أمامنا روايات متضافرة تنقل بوضوح وصراحة عن الإمام الصادق (عليه السلام) ادّعاءه الإمامة. وكما سنوضح فيما بعد، أن الإمام حين يعلن دعوته هذه كان يرى نفسه في مرحلة من الجهاد تستدعي أن يرفض بشكل مباشر صريح حكام زمانه، وأنه يعلن نفسه بأنه صاحب الحق الواقعي، وصاحب الولاية والإمامة. ومثل هذه التصّدي يعني عادة اجتياز سائر المراحل الجهادية السابقة بنجاح. ولا بدّ أن يكون الوعي السياسي والاجتماعي قد انتشر في قاعدة واسعة، وأن الاستعداد محسوس بالقوة في كل مكان، وأن الأرضية الإيديولوجية قد توفرت في عدد ملحوظ من الأفراد، وأن جمعاً غفيراً آمن بضرورة إقامة حكومة الحق والعدل، وأن يكون القائد - أخيراً - قد اتخذ قراره الحاسم بشأن هذه المواجهة الساخنة. وبدون هذه المقدمات فإن إعلان إمامة شخص معين وقيادته الحققة للمجتمع أمر فيه تعجّل ولا جدوى منه.

المسألة الأخرى، التي لا بدّ من التركيز عليها في هذا المجال، أن الإمام ما كان يكتفي في بعض الموارد بإثبات إمامته وحسب، بل يذكر إلى جانب اسمه أسماء أئمة الحق من أسلافه أيضاً، أي إنه يطرح في الحقيقة سلسلة أئمة أهل البيت بشكل متصل غير قابل للتجزئة والانفصال.

هذا الموقف يشير إلى ارتباط جهاد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وتواصله من الأزمنة السابقة إلى عصر الإمام الصادق (عليه السلام). إن الإمام الصادق (عليه السلام) يقرر إمامته باعتبارها النتيجة الحتمية المترتبة على إمامة أسلافه، وبذلك يبين جذور هذه الدعوة وعمقها في تاريخ الرسالة الإسلامية، وارتباطها بصاحب الدعوة الرسول الأكرم (عليه أفضل الصلاة والسلام). ولنعرض بعض نماذج دعوة الإمام:

أروع رواية في هذا الباب عن ((عمرو بن أبي المقدام))، وفيها تصوير لواقعة عجيبة.

في يوم التاسع من ذي الحجة إذ اجتمع الحجاج في عرفة لأداء منسك الوقوف، وقد توافدوا على هذا الصعيد من كل فج عميق.. من أقصى خراسان حتى سواحل الأطلنطي.. والموقف حساس وخطير، والدعوة فيه تستطيع أن تجد لها صدى في أقاصي العالم الإسلامي. انضم الإمام (عليه السلام) إلى هذه الجموع الغفيرة المحتشدة، ليوصل إليها كلمته، يقول الراوي: رأيت الإمام قد وقف بين الجموع ورفع صوته عالياً ليبلغ أسماع الحاضرين ولينتقل إلى آذان العالمين وهو ينادي:

((أيها الناس، إن رسول الله كان الإمام ثم كان علي بن أبي طالب، ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم...)) فينادي ثلاث مرات لمن بين يديه، وعن يمينه وعن يساره ومن خلفه، اثني عشر صوتاً.

ورواية أخرى عن ((أبي الصباح الكناني)) أن الإمام الصادق (عليه السلام) يصف نفسه وأئمة الشيعة بأن لهم ((الأنفال)) و((صفو المال))..

عن أبي الصباح قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): ((يا أبا الصباح، نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الأنفال ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال الله في كتابه)).

و ((صفو المال)) هو من الأموال ذات القيمة الرفيعة في غنائم الحرب، وكان لا يقسم كما تقسم الغنائم بين المجاهدين، كي لا يستأثر به أحد دون آخر ويكون كرامة كاذبة لأحد من الناس، بل إنه يبقى لدى الحاكم الإسلامي يتصرف به لما يحقق مصلحة عامة للمسلمين. وكان الحكام الظلمة يستأثرون بهذا المال ويجعلونه مختصاً بهم غصباً. والإمام يصرّح بأن ((صفو المال)) يجب أن يكون لهم، وهكذا الأنفال. وهذا يعني أنه يعلن نفسه بصراحة حاكماً شرعياً للمسلمين مسؤولاً عن استثمار هذه الأموال وفق ما يراه تحقيقاً لمصلحة الأمة.

وفي حديث آخر يذكر الإمام الصادق (عليه السلام) أسماء أسلافه من الأئمة (عليهم السلام) واحداً واحداً، ويشهد بإمامتهم ووجوب طاعتهم، وحين يصل إلى نفسه يسكت، والمخاطبون يعلمون جيداً أن ميراث العلم والحكم بعد الإمام الباقر (عليه السلام) وصل إلى الإمام الصادق. وبذلك يعلن الإمام (عليه السلام) حقه في قيادة الأمة بأسلوب يجعله مرتبطاً بجده علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وفي أبواب كتاب الحجّة من ((الكافي)) وكذلك في الجزء 47 من ((بحار الأنوار)) أحاديث كثيرة من هذا القبيل، تتحدث بصراحة أو بكناية عن ادّعاء الإمامة والدعوة إليها.

ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية أماناً شواهد عن شبكة منظمة لدعوة الإمام (عليه السلام) في جميع أرجاء العالم الإسلامي، والوثائق الكثيرة المتوفرة في هذا المجال تجعل وجود هذه الشبكة أمراً حتمياً لا مرأى فيه. وهذه الشواهد تبلغ من الكثرة والوثوق بحيث يمكن أن نستدل بها على موضوعنا استدلالاً قاطعاً، ولو لم يتوفر حديث صريح واحد في هذا المجال.

نحن في هذا المجال أمام ظواهر تاريخية ثابتة:

1- ثمة ارتباط منظم فكري ومالي بين الأئمة (عليهم السلام) وأتباعهم، وكانت الأموال تحمل من أطراف العالم إلى المدينة كذلك والأسئلة الدينية تتقاطر عليها.

2- اتساع الرقعة الموالية لآل البيت (عليهم السلام) خاصة في البقاع الحساسة من العالم الإسلامي.

3- تجمّع عدد غفير من المحدثين والرواة الخراسانيين والسيستانيين والكوفيين والبصريين واليمانيين والمصريين حول الإمام (عليه السلام).

فهل أن هذه الظواهر المنسجمة المتناسبة مع بعضها قد حدثت بالصدفة؟

ولابد أن نضيف أن هذه الظواهر حدثت في ظل سيطرة سياسية كانت جادة كل الجد في إلغاء حتى اسم علي وآل علي (عليه السلام)، بل سب علي على المنابر، وتسليط أنواع البطش والارهاب على أتباعهم. فكيف أمكن في مثل هذا الجو خلق قاعدة شعبية عريضة موالية لآل البيت تطوي آلاف الأميال للوصول الى الحجاز والمدينة لتتلمذ على أئمة أهل البيت (عليه السلام) وتأخذ عنهم فكر الإسلام في الحياة الفردية والاجتماعية، وتتحدث معهم في موارد كثيرة وعن مسائل الثورة على الوضع الفاسد، او بعبارة الروايات، تتحدث معهم عن مسائل القيام والخروج!!؟

فلو كان دعاة أهل البيت يقتصرون في حديثهم على علم الأئمة (عليهم السلام) وزهدهم، فلماذا يدور الحديث في وسط هؤلاء الاتباع دائماً عن الثورة المسلحة؟

ألا يدل كل ذلك على وجود شبكة منظمة للدعوة الى إمامة أهل البيت (عليه السلام) بالمعنى الكامل للإمامة، أي الفكرية والسياسية؟

وهنا يطرح سؤال عن سبب سكوت التاريخ عن وجود مثل هذه الشبكة المنظمة في دعوة أهل البيت (عليه السلام)، ولماذا لم يذكر التاريخ صراحة شيئاً عنها؟

والجواب ما أشرنا اليه مسبقاً، يكمن في التزام أصحاب الأئمة بالمبدأ الحركي الحكيم المسمّى بالتقية، الذي يحول دون نفوذ أي عنصر أجنبي في تنظيم الإمام. كما يكمن أيضاً في عدم استطاعة الحركة الجهادية الشيعية من تحقيق أهدافها ومن استلام زمام الحكم.

لو أن بني العباس لم يستولوا على السلطة لبقيت دون شك كل نشاطاتهم السرية وذكريات دعوتهم، مرّها وحلوها، حبيسة في الصدور، دون أن يعلم بها أحد ودون أن يسجلها التاريخ.

ومع ذلك، ليست قليلة هي الروايات التي تصرح الى حدّ ما بوجود دعوة واسعة لإمامة أهل البيت (عليهم السلام). ونكتفي برواية تقول:

قدم رجل من أهل الكوفة الى خراسان، فدعا الناس الى ولاية جعفر بن محمد (عليهما السلام)، ففرقة أطاعت وأجابت، وفرقة جحدت وأنكرت، وفرقة ورعت ووقفت.. ثم تقول الرواية: فخرج من كل فرقة رجل فدخلوا على أبي عبد الله (عليه السلام) فكان المتكلم منهم، الذي ورع ووقف. فقال: أصلحك الله، قدم علينا رجل من أهل الكوفة فدعا الناس الى طاعتك وولايتك، فأجاب قوم وأنكر قوم وورع قوم ووقفوا. قال الإمام (عليه السلام): فمن أي الثلاث أنت؟ قال: من الفرقة التي ورعت ووقفت. قال: فأين كان ورعك ليلة كذا وكذا (وذكره بسقوطه في موقف شهواني)، فارتاب الرجل.

الداعية كما ترى من أهل الكوفة، ومنطقة الدعوة خراسان، واسم الرجل مكتوم، ودعوته الى إمامة جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) وولايته وطاعته.

ثمة وثائق أخرى تبين محتوى دعوة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم الى الإمامة، تعرضها المناقشات والمجادلات بينهم وبين خصومهم السياسيين (الأمويين والعباسيين). هذه المنازعات كانت تدور أحياناً بلغة الاستدلال الكلامي والديني، وأحياناً بلغة الأدب الرفيع المتمثل بالشعر. وكان كل الحجاج يقوم على أساس اثبات حق الإمامة السياسية والحكم لأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، ومقارعة المتريعين ظلماً وغصباً على كرسي حكومة المسلمين. إن عصر الإمام الصادق (عليه السلام) - لمعاصرته حركة بني العباس وانتصار هذه الحركة - كان مفعماً بهذا اللون من الحجاج.

كان شعراء بني العباس يحاولون اثبات حق الحكم لبني العباس استناداً الى الأدلة نفسها التي يقدمها عادة الطامعون الى السلطة والمتشبهون بكرسي الحكم. ويقف شعراء الشيعة مقارعين لحججهم مستدلين على زيف الحكم العباسي من منطق إسلامي، يقوم على أساس رفض الظلم والاجرام والخيانة بحق الأمة الإسلامية.

وللحجاج الشعري بين العباسيين والعلويين أهمية في هذا المجال، لما كان ينهض به الشعر آنئذ من دور كبير في التعبير عن العواطف والأفكار، ولما كان يؤديه في القاعدة الشعبية من تأثير. يذكر صاحب كتاب ((العباسيون الأوائل)) دور الأدب في القرنين الأول والثاني فيقول:

((.. كان الأدب يؤثر في النفوس ويكسب عواطف الناس وميولهم الى هذه الفئة او تلك، وكان الشعراء والخطباء بمثابة جريدة العصر، يعبر كل منهم عن رأي سياسي ويدافع عن حزب معين، مبرزاً الدليل تلو لدليل على صحة دعواه، مفنداً آراء الخصوم بكلام مؤثر واسلوب بليغ)).

شعراء البلاط العباسي كانوا يجتهدون في اثبات حق العباسيين في الخلافة باعتبار ارتباطهم بالنبي عن طريق العمومة، مستدلين على ذلك بأن الارث لا ينقل الى أبناء البنت مع وجود الأعمام، فالخلافة بعد النبي من حق العباس عم النبي ومن بعده أبنائه من بني العباس:

قال مروان بن أبي حفصة:

أنى يكون وليس ذاك بكائن
لبني البنات وراثه الأعمام

وقال ابان بن عبد الحميد اللاهقي:

فأبناء عباس هم يرثونه
كما العم لابن العم في الارث قد حجب

منطلقين من عاطفة الشعور بالظلم للرد على هذه الأدلة، بالمنطق نفسه، وأحياناً بمنطق آخر للاستدلال على حق أئمة أهل البيت في الإمامة. من ذلك استدلالهم بحديث غدیر خم كقول السيد الحميري:

من كنت مولاه فهذا له مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا

ويردّ محمد بن يحيى بن أبي مرّة التغلبي على استدلال الشاعر العباسي بشأن وراثّة الاعمام فيقول:

لِمَ لا يكون وإن ذاك لكائن لبني البنات وراثّة الاعمام

للبنات نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

ما للطليق وللتراث وإنما صليّ الطليق مخافة الصمصام

ويرى دعبل أن كل ما حلّ بأهل البيت (عليهم السلام) من مصائب إنما هو لأنهم ورثوا النبي، فتكالب على الارث الطامعون، واضرّوا بمن له الحق في الإمامة:

أضرّ بهم ارث النبي فأصبحوا تساهم فيهم خيفة ومنون

دعتهم ذئاب من أمية وانتحت عليهم دراكاً ازمة وسنون

وعاثت بنو العباس في الدين عيثة تحكّم فيها ظالم وخؤون

وسمّوا رشيداً ليس فيهم لرشده وها ذاك مأمون وذاك أمين

فما قبلت بالرشد منهم رعاية ولا للولي بالأمانة دين

وليس من العسير على الباحث في العصر العباسي الأول أن يجد مئات النماذج من المحاورات والمناظرات السياسية بلغة الشعر في هذا المجال. وكان شعراء الشيعة وخصومهم يقيمون الحجج على دعواهم. وليس من المهم أن نعرف في هذه المواجهة مقدار صحة هذه الحجج واستقامتها، ولكن من المهم أن نعرف المحور الذي يدور حوله النزاع، والحق الذي يدعيه الجانبان.

هناك حق يدعيه كل جانب، وهذا الحق هو وراثته رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الحكم وفي قيادة المسلمين.

ليس النزاع بين الجانبين العلوي والعباسي في وراثته الخصال الأخلاقية والمعنوية والفكرية للنبي (صلى الله عليه وآله). ليس الخلاف في أحقية هذا أو ذاك في وراثته هذه الخصال. لأن هذه الخصال لا تشكل حقاً يتنازع عليه الفريقان. النزاع حول ((حق)) يدعيه الجانبان. وقد رأينا أن الشعراء في زمن الإمام الصادق (عليه السلام) يدافعون عن حق الإمام في قيادة الأمة المسلمة وفي حكم المجتمع الإسلامي، ويخوضون حرباً ضد من ليست لهم صلاحية حكومة المسلمين، ولذلك شواهد كثيرة في شعر القرن الثاني الهجري.

وقبل أن نختم هذا القسم من المناسب أن نشير الى لغة حجاج أخرى، هي لغة الرسائل. هذه الرسائل الاحتجاجية كانت تتضمن من جهة أهداف الفرقاء بشكل واضح دون لبس، وكانت تجد لها من جهة أخرى صدىً شعبياً بعد انتشار مضمونها، وتأثيراً قوياً على الأنصار والخصوم. نذكر من ذلك رسالة محمد بن عبد الله بن الحسن ذي النفس الزكية الى المنصور العباسي. هذا العلوي الثائر يذكر بصراحة ووضوح أنه يطلب نزع الخلافة من خصومه لتكون في أبناء علي (عليه السلام)، يقول:

((وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟!)).

ويبدو أن هذه الاستدلال أورده العلوي ردّاً على استدلال العباسيين في وراثتهم الخلافة، لأن بني العباس لم تكن لهم حجة سوى هذا الارث المزعوم، فأراد عليهم الطريق ويردّ عليهم بنفس منطقهم.

ويلاحظ في العبارة أن ذا النفس الزكية يركز على إمامة علي (عليه السلام) انطلاقاً من فهمه لمعنى الإمامة، ثم يركز على طبيعة دعوة البيت العلوي التي يمثلها هذا الثائر.

2- بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله):

هذا النشاط يمكن ملاحظته في حياة الإمام الصادق (عليه السلام) بشكل متميز عما نراه في حياة أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، حتى سمي فقه الشيعة باسم ((الفقه الجعفري)). حتى الذين يفضون الطرف عن النشاط السياسي للإمام الصادق (عليه السلام) يجمعون على أن الإمام كان يدير أوسع، او واحدة من أوسع الحوزات الفقهية في زمانه. والذي بقي مستوراً عن أعين أغلب الباحثين في حياة الإمام، هو المفهوم السياسي ومفهوم المواجهة لهذا اللون من نشاطات الإمام، وهذا ما سنتعرض له الآن.

لا بد أن نذكر أولاً، أن منصب الخلافة في الإسلام له خصائص متميزة تجعل الحاكم متميزاً عن الحكام في أنظمة الحكم الأخرى. فالخلافة ليست جهازاً سياسياً فحسب، بل هي جهاز سياسي وديني. وإطلاق لقب الخليفة على الحاكم الإسلامي يؤيد هذه الحقيقة، فهو خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في كل ما كان يمارسه الرسول من مهام دينية ومهام قيادية سياسية في المجتمع.

والخليفة في الإسلام يتحمل المسؤوليات السياسية والمسؤوليات الدينية معاً. هذه الحقيقة الثابتة دفعت الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الأولين والذين كانوا ذوي حظ قليل في علوم الدين، او لم يكن لهم منه حظ أصلاً، دفعتم الى سدّ هذا النقص عن طريق رجال دين مستخرين لهم. فاستخدموا فقهاء ومفسرين ومحدثين في بلاطهم، ليكون جهازهم الحاكم جامعاً أيضاً للجانبين الديني والسياسي.

والفائدة الأخرى من وجود وعاظ السلاطين في الجهاز الحاكم، هي إن الحاكم الظالم المستبد كان قادراً متى ما أراد أن يغيّر ويبدّل أحكام الدين وفقاً للمصالح. وكان هؤلاء المأجورون يقومون بهذه العملية ارضاءً لأولياء نعمتهم، تحت غطاء من الاستنباط والاجتهاد ينطلي على عامة الناس.

الكتاب والمؤرخون المتقدمون ذكروا لنا نماذج فظيعة من اختلاق الحديث ومن التفسير بالرأي كانت يد القوة السياسية فيها واضحة، وسنشير الى جانب منها في أقسام حديثنا التالية. هذا العمل الذي اتخذ غالباً في البداية (حتى أواخر القرن الهجري الأول) شكل وضع رواية او حديث، راح تدريجياً يأخذ طابع الفتوى. ولذلك نرى في أواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس ظهور فقهاء كثيرين استفادوا من أساليب رجاجة في أصول الاستنباط، ليصدروا الأحكام وفق أذواقهم التي كانت في الواقع أذواق الجهاز الحاكم.

هذه العملية نفسها أنجزت ايضاً في حقل تفسير القرآن. فالتفسير بالرأي اتجه غالباً الى إعطاء مفاهيم عن الإسلام لا تقوم على أساس سوى ذوق المفسر ورأيه المستمد من ذوق الجهاز الحاكم وإرادته.

من هنا انقسمت العلوم الإسلامية: الفقه والحديث والتفسير منذ أقدم العصور الإسلامية الى تيارين عامين:

التيار الأول: تيار مرتبط بجهاز الحكومة الظالمة العاصبة، ويتميز بتقديم الحقيقة في موارد متعددة قرباناً على مذهب ((المصالح)) التي هي في الواقع مصالح الجهاز الحاكم، ويتميز ايضاً بتحريف أحكام الله لقاء دراهم معدودات.

والتيار الثاني: التيار الأصيل الأمين الذي لا يرى مصلحة أرفع وأسمى من تبيين الأحكام الإلهية الصحيحة، وكان يصطدم - شاء أم أبى - في كل خطوة من خطواته بالجهاز الحاكم ووعاظ السلاطين، ولذلك اتجه منذ البدء اتجاهاً شعبياً في إطار من الحيطة والحذر.

انطلاقاً من هذا الفهم نعرف بوضوح أن اختلاف ((الفقه الجعفري)) مع الفقهاء الرسميين في زمن الإمام الصادق لم يكن اختلافاً فكرياً عقائدياً فحسب، بل كان يستمد وجوده من محتواه الهجومي المعارض ايضاً.

أهم أبعاد هذا المحتوى اثبات خواء الجهاز الحاكم، وفراغه من كل مضمون ديني، وعجزه عن إدارة الشؤون الفكرية للأمة، وبعبارة أخرى، عدم صلاحيته للتصدي لمنصب ((الخليفة)). والبعد الآخر تشخيص موارد التحريف في الفقه الرسمي.. هذه التحريفات القائمة على أساس فكر ((مصلحي)) في بيان الأحكام الفقهية ومداهنة الفقهاء للجهاز الحاكم. والإمام الصادق (عليه السلام) بنشاطه العلمي وتصديده لبيان أحكام الفقه والمعارف الإسلامية، وتفسير القرآن بطريقة تختلف عن طريقة وعاظ السلاطين قد اتخذ عملياً موقفاً المعارضاً تجاه الجهاز الحاكم. الإمام (عليه السلام) بنشاطه هذا قد يلغي كل الجهاز الديني والفقهي الرسمي الذي يشكل أحد أضلاع حكومة الخلفاء، ويفرغ الجهاز الحاكم من محتواه الديني.

ليس بأيدينا سند ثابت يبين التفات الجهاز الأموي الى هذا المحتوى المعارض لما قام به الإمام الصادق (عليه السلام) من نشاط علمي فقهي، ولكن أغلب الظن أن الجهاز الحاكم العباسي - وخاصة في زمن المنصور الذي كان يتمتع بحنكة ودهاء وتجربة اكتسبها من صراعه السياسي الطويل مع الحكم الأموي قبل وصوله الى السلطة - كان يعي المسائل الدقيقة في نشاطات البيت العلوي. وكان الجهاز الحاكم العباسي يفهم الدور الفاعل الذي يستطيع أن يؤديه هذا النشاط العلمي بشكل غير مباشر.

والتهديدات والضغوطات والمضايقات التي كانت تحيط بنشاطات الإمام الصادق (عليه السلام) التعليمية والفقهية من قبل المنصور المنقولة إلينا في روايات تاريخية كثيرة ناتجة من هذا الالتفات الى حساسية المسألة. وهكذا اهتمام المنصور بجمع الفقهاء المشهورين في الحجاز والعراق في مقر حكومته - كما تدل على ذلك النصوص التاريخية العديدة - فإنه ناشئ عن هذا الالتفات أيضاً.

في حديث الإمام (عليه السلام) وتعاليمه لأصحابه ومقربيه كان يستند الى ((خواء الخلفاء وجهلهم)) ليستدل على أنهم في نظر الإسلام لا يحق لهم أن يحكموا. ونحن نشهد هذه الصيغة من الهجوم على الجهاز الحاكم بوضوح وصراحة في دروسه الفقهية.

يروى عنه قوله (عليه السلام): ((نحن قوم فرض الله طاعتنا وأنتم تأتمون بمن لا يُعذر الناس بجهالته)).

أي أن الناس انحرفوا بسبب جهل حكامهم وولادة أمورهم، وسلكوا سبيلاً غير سبيل الله. وهؤلاء غير معذورين لدى الله. لأن إطاعة هؤلاء الحكام كانت عملاً انحرافياً، فلا يبرر ما يستتبعها من وقوع في الانحرافات.

في تعليمات الأئمة (عليهم السلام) قبل الإمام الصادق (عليه السلام) وبعده نرى أيضاً تركيزاً على ضرورة اقتران القيادة السياسية بالقيادة الفكرية والأيديولوجية. ففي رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن جدّه الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قال: ((إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني إسرائيل، أينما دار التابوت دار الملك (تأمل بدقة المعنى الرمزي في التعبير) وأينما دار السلاح فينا دار العلم.. وفي رواية أخرى: حيثما دار السلاح فينا فثمّ الأمر (الحكم)).

ويسأل الراوي الإمام: فيكون السلاح مزاياً (مقارناً) للعلم؟

قال الإمام: لا. أي أن قيادة المجتمع المسلم يجب أن تكون في من بيده السلاح والعلم معاً.

الإمام (عليه السلام) إذن يرى أن علم الدين وفهم القرآن بشكل صحيح شرط من شروط الإمامة، ومن جهة أخرى فهو بنشاطه العلمي، وجمع عدد غفير من مشتاقين علوم الدين حوله، وتعليمه الدين بشكل يختلف تماماً عن الطريقة المعتادة لدى العلماء والمحدثين والمرتبطين بجهاز الخلافة، يثبت عملياً أصالة المحتوى الديني لمدرسته، وزيف الظاهر الديني الذي يتقمّصه جهاز الخلافة ومن لفّ لفّه من علماء بلاطه. وعن هذا الطريق المهاجم المتواصل العميق الهادئ يضيء على جهاده بعداً جديداً.

وكما ذكرنا من قبل، فإن الحكام العباسيين الأوائل الذين قضوا سنين طوالاً قلّ تسلّمهم السلطة في نفس أجواء الجهاد العلوي والى جانب أنصار العلويين، كانوا على علم بكثير من الخطط والمنعطفات، وكانوا متفهمين لدور الهجوم والمواجهة الذي يؤديه هذا النشاط في الفقه والحديث والتفسير أكثر من

أسلافهم الأمويين. وقد يكون هذا السبب هم الذي دفع المنصور العباسي في مواجهاته مع الإمام الصادق (عليه السلام) أن يمنع الإمام زماً من الجلوس في حلقات التدريس وعن تردد الناس عليه. حتى أن المفضل بن عمر يقول: ((إن المنصور قد كان همّ بقتل أبي عبد الله (عليه السلام) غير مرة، فكان اذا بعث اليه ودعاه ليقتله فاذا نظر اليه هابه ولم يقتله، غير أنه منع الناس عنه ومنعه من القعود للناس، واستقصى عليه أشد الاستقصاء، حتى أنه كان يقع لأحدهم مسألة في دينه في نكاح او غير ذلك فلا يكون علم ذلك عندهم، ولا يصلون اليه فيعتزل الرجل وأهله، فشق على شيعته وصعب عليهم...)).

3- إقامة تنظيم سري ايديولوجي - سياسي

مرّ بنا أن الإمام الصادق (عليه السلام) قاد في أواخر العصر الأموي شبكة اعلامية واسعة استهدفت الدعوة الى إمامة آل علي (عليهم السلام) وتبيين مسألة الإمامة بشكلها الصحيح. وهذه الشبكة نهضت بدور مثمر وملحوظ في أقاصي بقاع العالم الإسلامي، وخاصة في العراق وخراسان لنشر مفاهيم الإمامة.

ونشير هنا الى جانب صغير من هذه المسألة. مسألة التنظيمات السرية في الحياة السياسية للإمام الصادق (عليه السلام) وباقي الأئمة من أهم المسائل وأكثرها حساسية، وهي في الوقت نفسه من أغمض فصول حياتهم وأشدّها ابهاماً. وكما ذكرنا، لا يمكن أن نتوقع وجود وثائق صريحة في هذا المجال، حيث لا يمكن أن نتوقع من الإمام او أحد أصحابه أن يعترف صراحة بوجود هذه التنظيمات - السياسية - الفكرية.

فهذا مما لا يمكن الكشف عنه. الشيء المعقول هو أن الإمام ينفي بشدة وجود مثل هذا التنظيم السري، وهكذا أصحابه، ويعتبرون ذلك تهمة وسوء ظن فيما لو تعرضوا لاستجواب جهاز السلطة. هذه هي خاصية العمل السري، والباحث في حياة الأئمة (عليهم السلام) ايضاً من حقه أن لا يقتنع بوجود مثل هذا التنظيم دون دليل مقنع. اذن فلا بد أن نبحت عن القرائن والشواهد والحوادث التي تبدو بسيطة لا تلفت نظر المطالع العادي، لنبحث عن دلالاتها في هذا المجال. بهذا اللون من التدقيق في

حياة الأئمة (عليهم السلام) خلال قرنين ونصف القرن من حياتهم يستطيع الباحث أن يطمئن الى وجود مثل هذه التنظيمات التي تعمل تحت قيادة الأئمة (عليهم السلام).

ما المقصود بالتنظيم؟ ليس المقصود به طبعاً حزباً منظماً بالمفهوم المعروف اليوم، ولا يعني وجود كوادر منظمة ذات قيادات اقليمية مرتبطة هرمياً، فلم يكن شيء من هذا موجوداً ولا يمكن أن يوجد. المقصود بالتنظيم وجود جماعة بشرية ذات هدف مشترك تقوم بنشاطات متنوعة تتجه نحو ذلك الهدف، وترتبط بمركز واحد وقلب نابض واحد ودماغ مفكر واحد، تسود بين أفرادها روابط عاطفية مشتركة.

هذه الجماعة كانت في زمن الإمام علي (عليه السلام) (أي خلال السنوات الخمس والعشرون بين وفاة الرسول الأكرم وبيعته للخلافة) كان يجمعها الايمان بأحقية الإمام علي (عليه السلام) في الخلافة، وكانت تعلن وفائها الفكري والسياسي للإمام، غير أنها كانت تحذو حذو الإمام علي (عليه السلام) في عدم إثارة ما يزلزل المجتمع الإسلامي الوليد، كما كانت تنهض بما كان ينهض به الإمام علي (عليه السلام) في تلك السنوات من مهام رسالية تستهدف صيانة الإسلام ونشره، ومحاولة الحدّ من الانحرافات. واتخذت لولائها هذا اسم ((شيعة علي))، ومن وجوههم المشهورة: سلمان وعمار وأبو ذر وأبي بن كعب والمقداد وحذيفة وغيرهم من الصحابة الأجلاء.

ولدينا شواهد تاريخية تثبت أن هؤلاء كانوا يشيعون بين الناس فكرهم بشأن إمامة علي (عليه السلام) بشكل حكيم. وعملهم هذا كان مقدمة لالتفاف الناس حول الإمام وإقامة الحكم العلوي.

بعد أن استلم الإمام علي (عليه السلام) مقاليد الأمور سنة 35 هجرية، كان حول الإمام علي صنفان من الناس: صنف عرف الإمام ومكانته وفهم معنى الإمامة وآمن بها، وهم شيعة الذين تربوا على يد الإمام بشكل مباشر او غير مباشر. وعامة الناس الذين عاشوا أجواء تربية الإمام ونهجه ولكنهم لم يكونوا مرتبطين فكرياً وروحياً بالجماعة التي ربّتها الإمام تربية خاصة.

ولذلك نجد بين أتباع الإمام صنفين من الأفراد بينهما تفاوت كبير: صنف يضم عماراً ومالكاً الأشتر وحجر بن عدي وسهل بن حنيف وقيس بن سعد وأمثالهم، وصنف من مثل أبي موسى الأشعري وزياد بن أبيه نظرائهم.

بعد حادثة صلح الإمام الحسن (عليه السلام) كانت الخطوة الهامة التي اتخذها الإمام لنشر فكر مدرسة أهل البيت، ولمّ شتات الموالين لهذا الفكر، إذ اتاحت الفرصة لحركة أوسع بسبب اضطهاد السلطة الأموية. وهكذا كان دائماً، فالاضطهاد يؤدي إلى انسجام القوى المضطهدة وتلاحمها وتجذرها بدل تبعرها وتشتتها. واتجهت استراتيجية الإمام الحسن (عليه السلام) إلى تجميع القوى الأصلية الموالية، وحفظها من بطش الجهاز الأموي، ونشر الفكر الإسلامي الأصيل في دائرة محدودة، ولكن بشكل عميق، وكسب الأفراد إلى صفوف الموالين، وانتظار الفرصة المواتية للثورة على النظام وتفجير أركانه، وإحلال الحكم العلوي مكانه.. وهذه الاستراتيجية في العمل هي التي جعلت الإمام الحسن (عليه السلام) أمام خيار واحد وهو الصلح.

ومن هنا نرى أن جمعاً من الشيعة برئاسة المسيب بن نجية وسليمان بن سرد الخزاعي يقدمون على الإمام الحسن (عليه السلام) بعد حادثة الصلح في المدينة، حيث اتخذها الإمام قاعدة لعمله الفكري والسياسي بعد عودته من الكوفة، ويقترحون عليه إعادة قواهم وتنظيماتهم العسكرية والاستيلاء على الكوفة والاشتباك مع جيش الشام، الإمام يستدعي هذين الاثنين من بين الجمع، ويختلي بهما ويحدثهما بحديث لا نعرف فحواه، يخرجان بعده بقناعة تامة بعدم جدوى هذه الخطة. وحين يعود الاثنان إلى من جاء معهما يفهمانهم باقتضاب أن الثورة المسلحة مرفوضة، ولا بد من العودة إلى الكوفة لاستئناف نشاط جديد فيها.

هذه حادثة مهمة لها دلالات كبيرة حدث ببعض المؤرخين المعاصرين إلى اعتبار ذلك المجلس الحجر الأساس في إقامة التنظيم الشيعي.

والواقع أن الخطوة الأولى لإقامة التنظيم الشيعي لو كانت حقاً قد اتخذت في ذلك اللقاء بين الإمام الحسن (عليه السلام) والرجلين القادمين من العراق، فإن مثل هذه الخطوة قد أوصى بها الإمام علي

(عليه السلام) من قبل حين أوصى المقربين من أصحابه بقوله: ((لو قد فقدتموني لرأيتم بعدي أشياء يتمنى أحدكم الموت مما يرى من الجور والعدوان والأثرة والاستخفاف بحق الله والخوف على نفسه، فإذا كان ذلك:

- فاعتصموا بالله جميعاً ولا تفرقوا.

- وعليكم بالصبر والصلاة.

- والتقية.

واعلموا أن الله عز وجل يبغض من عباده (التلّون). لا تزولوا عن (الحق وأهله) فإن من استبدل بها هلك، وفاتته الدنيا وخرج منها آثماً)).

هذا النص الذي يرسم بوضوح الوضع المأساوي في العصر الأموي، ويوجه المؤمنين الى التلاحم والتعاقد والتنسيق والانسجام، يعتبر أروع وثيقة من وثائق الجهاز التنظيمي في حركة أهل البيت (عليهم السلام). وهذا المشروع التنظيمي يتبلور في شكله العملي في اللقاء بين الإمام الحسن (عليه السلام) واثنين من الشيعة الخلّص. ومما لاشك فيه أن أتباع أهل البيت لم يكونوا جميعاً مطّلعين على هذا المشروع الدقيق. ولعل هذا يبرّر ما كان يصدر من بعض صحابة الإمام الحسن (عليه السلام) من اعتراض وانتقاد. وكان المعترضون يواجهون قول الإمام الذي مضمون: ((.. من يدري، لعل اختبار لكم ونفع زائل لأعدائكم ..)).

وفي هذه الاجابة إشارة خفية الى سياسة الإمام وتدييره.

خلال الأعوام العشرين من حكومة معاوية بكل ما أحاط فيها البيت العلوي من إعلام مكثّف مضاد، بلغ درجة لعن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) على منابر المسلمين، وبكل ما شهدتها من انسحاب الإمامين الحسن والحسين (عليهما السلام) من ساحة النشاط العلني المشهود، لا نرى سبباً في انتشار فكر أهل البيت واتساع القاعدة الشيعية في الحجاز والعراق سوى وجود هذا التنظيم.

ولنلقِ نظرة على الساحة الفكرية في هذه المناطق بعد عشرين عاماً من صلح الإمام الحسن (عليه السلام).

في الكوفة نرى رجال الشيعة من أبرز الوجوه وأشهرها. وفي مكة والمدينة بل وفي المناطق النائية نرى أتباع أهل البيت مثل حلقات مترابطة يعرف بعضها ما يلّمّ بالبعض الآخر.

حين يستشهد بعد أعوام أحد رجال الشيعة وهو ((حجر بن عدي)) ترتفع أصوات الاعتراض في مناطق عديدة من البلاد الإسلامية، على الرغم من الارهاب المفروض على كل مكان، ويبلغ الحزن والأسى بشخصية معروفة في خراسان ان يموت كمدأ بعد إعلان الاعتراض الغاضب.

وبعد موت معاوية ترد على الإمام الحسين (عليه السلام) آلاف الرسائل تدعوه أن يأتي الكوفة لقيادة الثورة. وبعد استشهاد الإمام يلتحق عشرات الآلاف بمجموعة ((التوابين))، او ينخرطون في جيش المختار وابراهيم بن مالك ضد الحكم الأموي.

ومن حق الباحث في التاريخ الإسلامي أن يسأل عن العوامل الكامنة وراء شيوع هذا الفكر والتحرك الموالي لآل البيت (عليهم السلام). هل يمكن أن تتم دون وجود نشاط مكثف محسوب منظم متحد في الخطة والهدف!؟

الجواب: لا طبعاً. فالإعلام الهائل، الذي وجهته السلطة الأموية عن طريق مئات القضاة والولاة والخطباء، لا يمكن إحباطه وإفشاله دون إعلام مخطط مرسوم، ينهض به تنظيم منسجم موحد غير مكشوف. وقبيل وفاة معاوية تزايد نشاط هذه الجهاز العلوي المنظم وتصاعدت سرعة عمله. حتى أن والي المدينة يكتب الى معاوية ما مضمونه: ((أما بعد، فإن عمر بن عثمان - عين والي المدينة على الحسين (عليه السلام) - أخبرنا بأن رجالاً من العراق وبعض شخصيات الحجاز يترددون على الحسين بن علي، وتدور بينهم أحاديث حول رفع راية التمرد والعصيان.. فاكتبوا لنا ماذا ترون)).

بعد واقعة كربلاء وشهادة الإمام الحسين (عليه السلام) تضاعف النشاط التنظيمي لشيعة العراق على أثر الصدمة النفسية التي أصيبوا بها من مقتل الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث بوغتوا بهذه الجريمة التي سلبتهم قدرة الالتحاق بركب الحسين وأهل بيته في كربلاء. وكان هذه التحرك مؤطراً بالألم والحسرة والأسف.

يقول الطبري: فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها الى الطلب بدم الحسين، فكان يجيهم القوم بعد القوم والثغر بعد الثغر، فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد بن معاوية.

وحقاً ما تقوله مؤلفة جهاد الشيعة اذ تعلق على قول الطبري بالقول:

وظهرت جماعة الشيعة بعد مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) كجماعة منظمة، تربطها روابط سياسية وآراء دينية، لها اجتماعاتها وزعمائها، ثم لها قواتها العسكرية، وكانت جماعة ((التوابين)) أول مظهر لذلك كله.

ويبدو من دراسة أحداث التاريخ ورأي المؤرخين في تلك البرهة الزمنية، أن الشيعة كانوا يتولون مسؤولية القيادة والتخطيط، أما القاعدة العريضة الساخطة على بني أمية، فكانت أوسع من المجموعة الشيعية المنظمة، وكانت هذه القاعدة تنضم الى كل حركة ذات صبغة شيعية.

من هنا فإن المتحريين ضد بني أمية، وإن رفعوا شعارات شيعية، لا ينبغي أن نتصورهم جميعاً بأنهم في عداد الشيعة، أي في عداد الجهاز التنظيمي لأئمة أهل البيت (عليهم السلام).

انطلاقاً مما سبق، أودّ التأكيد على أن اسم الشيعة بعد شهادة الإمام الحسين (عليه السلام) أُطلق فقط على المجموعة التي كانت لها علاقة وثيقة بالإمام الحق، تماماً كما كان الحال في زمن أمير المؤمنين (عليه السلام).

هذه المجموعة هي التي عمدت بعد صلح الإمام الحسن (عليه السلام) إلى تأسيس التنظيم الشيعي بأمر الإمام، وهي التي نشطت في كسب الأفراد إلى التنظيم ودفع أفراد أكثر، لم يرتفعوا في الفكر والنضج العملي إلى مستوى الانخراط في التنظيم، نحو التيار العام للحركة الشيعية.

والرواية التي أوردناها عن الإمام الصادق (عليه السلام) في بداية هذا الحديث، والتي تذكر أن عدد المؤمنين بعد حادثة عاشوراء لم يتجاوز الثلاثة أو الخمسة، إنما تقصد أفراد هذه المجموعة الخاصة.. أي هؤلاء الذين كان لهم الدور الرائد الواعي في مسيرة حركة التكامل الثورية العلوية.

وعلى اثر النشاط المتسارع الهادئ الذي قام به الإمام السجاد (عليه السلام) توسعت قاعدة هذه المجموعة، وإلى هذا يشير الإمام الصادق (عليه السلام) في الرواية المذكورة: ((ثم لحق الناس وكثروا)). وسنرى أن عصر الإمام السجاد والإمام الباقر والإمام الصادق (عليهم السلام) شهد تحرك هذا الجمع تحركاً أثار الرعب والفرع في قلوب الحكام الظالمين، ودفع هؤلاء الحكام إلى ردود فعل قاسية.

وبعبارة موجزة، فإن اسم الشيعة في القرنين الأول والثاني الهجريين وفي زمن الأئمة (عليهم السلام) ما كان يُطلق على الذين يحبون آل بيت النبي (عليهم السلام) أو المؤمنين بحقهم وبصدق دعوتهم فقط، من دون اشتراك في مسيرتهم الحركية. بل إن الشيعة كانوا يتميزون بشرط أساسي وحتمي، وهو عبارة عن الارتباط الفكري والعملي بالإمام، والاشتراك في النشاط الفكري والسياسي، بل والعسكري الذي يقوده لإعادة الحق إلى نصابه، وإقامة النظام العلوي الإسلامي. هذا الارتباط هو نفسه الذي يطلق عليه في قاموس التشيع اسم ((الولاية)).

جماعة الشيعة كانت تطلق في الواقع على أعضاء حزب الإمامة.. هذا الحزب الذي كان يتحرك بقيادة الإمام (عليه السلام) وكان يتخذ من الاستتار والتقية خندقاً له مثل كل الأحزاب والتنظيمات المضطهدة التي تعيش في جو الإرهاب. هذه خلاصة النظرة الواقعية لحياة الأئمة (عليهم السلام)، وخاصة الإمام الصادق (عليه السلام). وكما ذكرنا من قبل لا يمكن أن يكون لمثل هذه المسألة دلائل صريحة، إذ لا

يمكن أن نتوقع من بيت سرّي أن يحمل لافتة تقول: ((هذا بيت سرّي))! وكذلك لا يمكن أن نطمئن إلى النتيجة دون قرائن حاسمة.

من هنا ينبغي أن نتبّع القرائن والشواهد والإشارات.

من العبارات العميقة التي تلفت نظر الباحث المدقق في الروايات المرتبطة بحياة الأئمة (عليهم السلام)، أو في كلام مؤلّفي القرون الإسلامية الأولى، عبارة ((باب)) و((وكيل)) و((صاحب السر)) وهي عبارات تطلق على بعض أصحاب الأئمة. فمثلاً، يقول ابن شهرآشوب المحدث الشيعي الشهير في سيرة الإمام السجاد (عليه السلام): ((وكان بابه يحيى بن أم الطويل))، وفي سيرة الإمام الباقر (عليه السلام) يقول: ((وكان بابه جابر بن يزيد الجعفي))، وفي ترجمة الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: ((وكان بابه محمد بن سنان)). وفي ((رجال الكشي)) ترد حول زارة وبريد ومحمد بن مسلم وأبي بصير عبارة: ((مستودع سرّي)). وفي كتب الحديث تروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) عبارة ((وكيل)) بشأن المعلّى بن خنيس. وكل واحد من هذه التعبيرات، إن لم تكن صادرة عن الإمام، فإنها دون شك حصيلة دراسة موسعة في حياة الأئمة، نهض بها المؤلفون الشيعة القدامى. واختبار هذه التعبيرات العميقة على أي حال ينطلق من معالم بارزة في حياة أئمة أهل البيت (عليهم السلام). ولو تأملنا في هذه التعبيرات لألفينا أن كل واحد منها يدل على وجود جهاز فعّال مستمر وراء النشاط الظاهري للأئمة (عليهم السلام).

إذا لم يكن لأحدٍ ((سرّ)) فليس له مستودع سرّ. فما هو هذا السرّ في حياة الأئمة؟ ما هذا الذي لا يتحمّله أصحاب الأئمة عامة، بل ثمة نفر معدود له لياقة وصلاحية تحمّله، وبذلك نال شرف اسم ((مستودع السر))؟!

ولقد راحت الذهنية المتأخرة البعيدة عن واقع الأحداث وتمحيصها تفسّر هذا السرّ بأنه ((سرّ الإمامة)). كما راحت تفسّر سرّ الإمامة بأنه الأسرار الغيبية والقدرة على الخوارق والمعجز.

أنا أو من بقدره هذه الصفوة المقدسة من أهل البيت، الذين اختارهم الله لمواصلة مهمة حمل الرسالة وتبليغها بعد رسول الله، أن يحملوا مثل هذا القدرة ومثل هذه العلوم، كما أو من بأن تحليهم بهذه القوى والعلوم لا يتنافى أصلاً مع نظرة الإسلام إلى الإنسان والنواميس الطبيعية وسنن الكون. ولكن هذه القوى والعلوم ليست هي ((سر الإمام)). فمثل هذه القوى والعلوم أوضح دليل على الإمامة وعلى صدق دعوى الإمام. لماذا يكتفم الإمام هذه الأمور ويوصي أصحابه بكتمانها في روايات كثيرة، تضافرت حتى أصبحت الكتب الحديثية الشيعية تتضمن باباً يحمل عنوان: ((باب الكتمان))؟ لا بد أن يكون هذا السرّ مما لو شاع لشكل خطراً كبيراً على الإمام وأصحابه، وهذا شيء غير الغيبات والخوارق.

هل السر هو معارف أهل البيت؟ هل هو رؤية مدرسة أهل البيت للإسلام وفقهها وأحكامها؟ لا ننكر أن معارف مدرسة أهل البيت كانت تنشر في عصر الاضطهاد الأموي والعباسي وفق منهج الحكمة والتدبير، لكي لا يخوض فيها كل من هبّ ودبّ، ولكن هذه المعارف لا يمكن أن تكون هي سر الإمام. فمع كل ما أحاط بهذه المعارف من اختصاص، كانت تدرس في مئات الحوزات الفقهية والحديثية في عدد من كبريات مدن الصقع الإسلامي آنذاك، كان الشيعة يتناقلون هذه المعارف ويشرحونها ويتداولونها. بعبارة أخرى كانت هذه المعارف خاصة لا سرية.

واختصاصها يعني أن رواجها كان محدوداً بالدائرة الشيعية، لكنها كانت تصل الى غير الشيعة ايضاً في ظروف خاصة. لم تكن أبداً محدودة بأفراد معدودين من أصحاب الأئمة وخافية على غيرهم.

الحق إن الأسرار هي ما يتعلق بالمعلومات المرتبطة بالجهاز التنظيمي للإمام.. بالجهاز الذي يخوض معتركاً سياسياً باتجاه هدف ثوري.. بالتكتيك الذي ينتهجه الجهاز.. بالعمليات التي ينفذها.. بأسماء ومهام أعضاء الجهاز.. بمصادر التمويل.. بالأخبار والتقارير المتعلقة بالأحداث الهامة.. هذه وأمثالها من الأسرار التي لا يجوز أن يطلع عليها سوى القائد والكوادر المسؤولة. ربما تحين الظروف المناسبة عاجلاً أم آجلاً لإعلان هذه الأسرار وكشفها، ولكن قبل أن تحين تلك الظروف لا يمكن أن يطلع على هذه الأسرار سوى من يرتبط عمله مباشرة بها، وهم ((مستودع السر)). وكل تسريب لهذه المعلومات

الى أوساط الشيعة فإنه يفتح ثغرة تسربها الى الأعداء، وهو خطأ كبير لا يغتفر، خطأ قد يؤدي الى انهدام الجهود والأعمال والمجموعة المنتظمة. ومن هنا نفهم ما يعنيه الإمام (عليه السلام) اذ قال: ((ليس الناصب لنا حرباً بأعظم من المذيع علينا سرّنا. فمن أذاع سرّنا الى غير أهله لم يفارق الدنيا حتى يعضه السلاح)).

الباب والوكيل

في الارتباطات السرية بين الإمام (عليه السلام) والشيعة قد يتطلب الأمر ايصال بعض المعلومات الى الشيعة عن طريق ((واسطة))، وهذا تدبير معقول وطبيعي. العيون المتلصصة على كشف ارتباطات الإمام (عليه السلام) تترصد التقاءاته بأتباعه في موسم الحج في مكة والمدينة حين تؤمها القوافل من أقاصي العالم، لذلك نرى أن الإمام (عليه السلام) كان يُبعد عنه بعض الأفراد بلهجة لينة أحياناً، ومعاينة تارة أخرى. يقول لسفيان الثوري مثلاً: ((أنت رجل مطلوب وللسلطان علينا عيون فاخرج عنا غير مطرود)).

ويترحم الإمام (عليه السلام) على شخص صادفه في الطريق وأعرض بوجهه عنه، ويذم شخصاً آخر رآه في ظروف مشابهة فسلم عليه باحترام واجلال.

مثل هذه الظروف تستلزم وجود فرد يكون واسطة بين الإمام (عليه السلام) وبين من يحتاج الى معلومات تصل اليه من الإمام، وهذا الواسطة هو ((الباب))، ويجب أن يكون من أخلص أتباع الإمام، وأقربهم اليه، وأغناهم بالمعلومات والخطط. يجب أن يكون مثل ((نحلة)) اذا عرفت الحشرات المضرة ما تحمله من عسل قطعها وأغارت على شهدها. وليس صدفة أن نرى تعرض هؤلاء ((الأبواب)) غالباً للمطاردة وأقصى ألوان البطش والتنكيل.

إن يحيى بن أم طويل ((باب)) الإمام السجاد (عليه السلام) يقتل بشكل شنيع. وجابر بن يزيد الجعفي باب الإمام الباقر (عليه السلام) يتظاهر بالجنون ويشيع عنه ذلك فينجيه من القتل الذي صدر الأمر به

من الخليفة قبل أيام من اشتهاار جنونه. ومحمد بن سنان باب الإمام الصادق (عليه السلام)، يتعرّض لطرء ظاهري من الإمام رغم أن الإمام أبدى رضاه عنه في مواضع أخرى وأثنى عليه، وما ذلك إلا لتعرّض محمد بن سنان لمثل هذه الأخطار. كما أن إعلان الإمام براءته من راوٍ معروف ومشهور حظي بإعلان رضا الإمام (عليه السلام) مراراً يعود على الأقوى الى تكتيك تنظيمي.

مثل هذا المصير يواجهه ((الوكيل)) ايضاً. مسؤول جمع الأموال المرتبطة بالإمام وتوزيعها، يملك ايضاً كثيراً من الأسرار وأقلها أسماء الدافعين والقابضين، وليست هذه المعلومات بالتي يستهين بها أعداء الإمام، وأفضل دليل على ذلك مصير المعلّى بن خنيس وكيل الإمام الصادق (عليه السلام) في المدينة، وتعبيرات الإمام القائمة على أساس التقية بشأن المفضل بن عمر وكيل الإمام في الكوفة.

هذه العناوين الثلاثة (الباب، الوكيل، صاحب السر) التي نجد مصاديقها في وجوه بارزة من رجال الشيعة تلقي ظلالاً على واقع الشيعة وارتباطهم بالإمام والحركة التنظيمية الشيعية.

يمكننا بهذه النظرة أن نفهم الشيعة بأنهم مجموعة من العناصر المنسجمة الهادفة النشطة المتمركزة حول محور مقدس يشعّ بتعاليمه وأوامره على القاعدة، والقاعدة ترتبط به وتنقل اليه المعلومات وتضبط مشاعرها وتسيطر على عواطفها بتوصياته الحكيمة، وتلتزم التزاماً دينياً العمل السري، مثل حفظ الأسرار، وقلة الكلام، والابتعاد عن الأضواء والتعاون الجماعي والزهد الثوري.